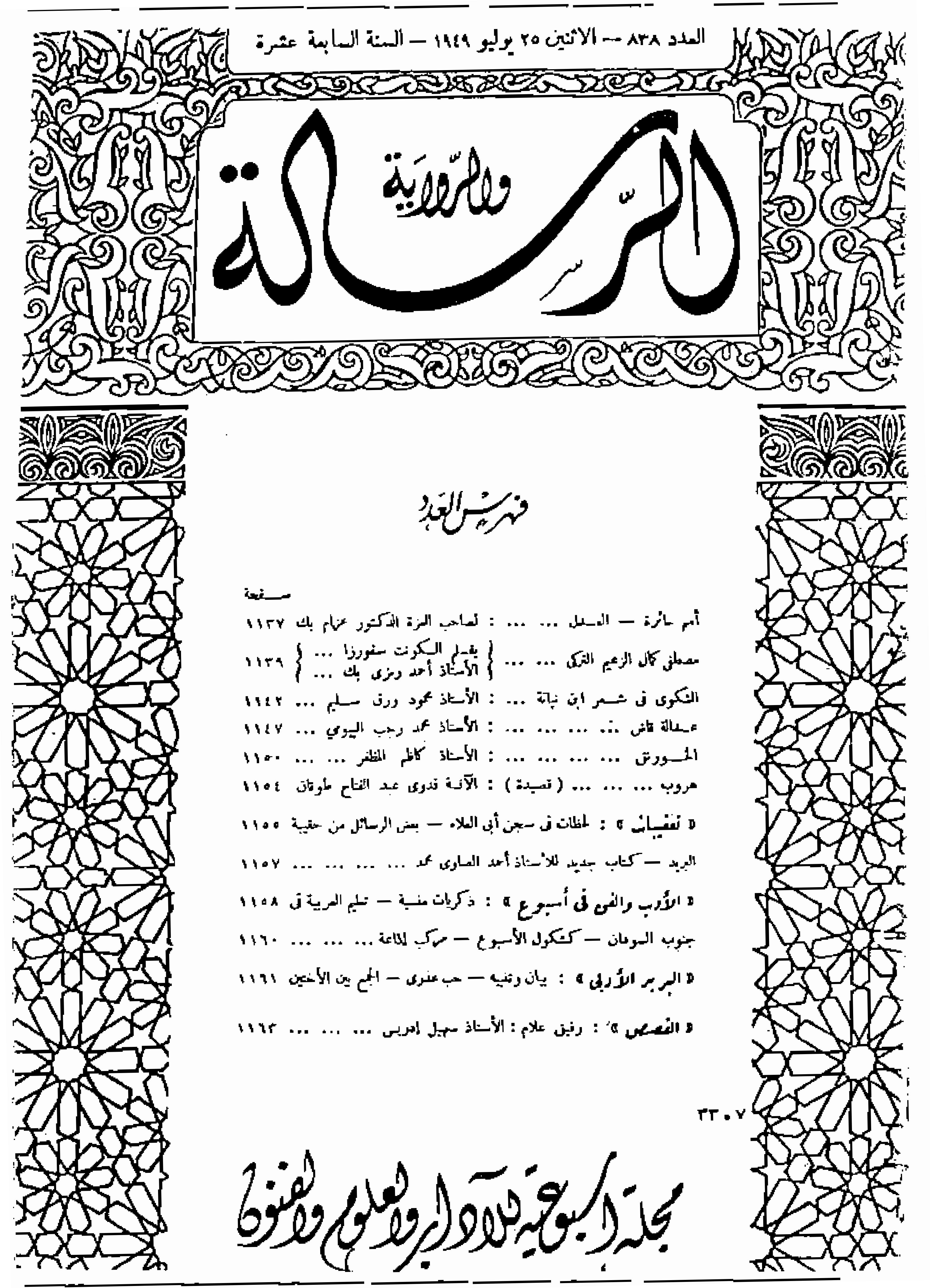
العدد ٨٣٨ — الاثنين ٢٥ يوليو ١٩٤٩ — السنة السابعة عشرة



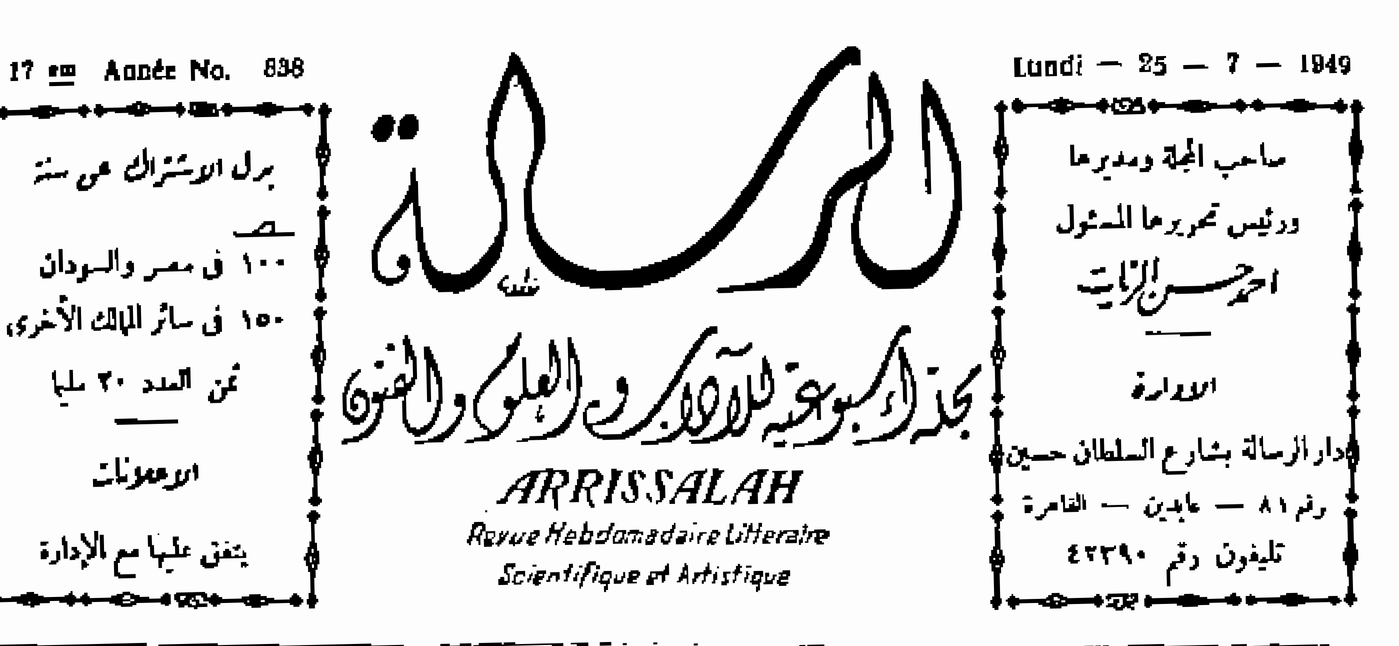
فهرس العدد

٣٣٠٧

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

17e Année No. 838

Lundi — 25 — 7 — 1949



العـــــدد ٨٣٨ « القاهرة في يوم الاثنين ٢٩ رمضان سنة ١٣٦٨ — ٢٥ يوليو سنة ١٩٤٩ » السنة السابعة عشرة

١٢ - أمم حــــائرة

العــــدل

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك

وزير مصر المفوض بالمملكة السعودية

إذا اجتمعت النفس بالإيمان ، وقويت واستنارت ، وارتقت إلى عالم المعانى ، وأنِست بالمعانى الجليلة السامية ، وأحبت الوئام والسلام ، ونفرت من النزاع والخلاف ، وانطلقت من حدود الأهواء والشهوات والرغبة والرهبة والعصبية ، وعلت على الزمان والمكان — حينئذ تؤهل للحق والخير والجمال والعدل والإحسان

وإذا أهلت النفس للعدل ، وسكنت إليه وآثرته كانت أهلا لأداء الأمانة التي قال فيها القرآن :

(إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبينَ أن يحملنها وأشفقنَ منها وحملها الإنسان) .

وكانت أهلا لخلافة الله في الأرض ، أي القيام بعدله بين خلقه ، وجهدت للارتقاء إلى منزلة العدل ، العدل المطلق ، في الرغبة والرهبة ، والمنشط والمكره ، والرضا والغضب ، ومع القريب والبعيد ، والعدو والصديق ، في كل حين وعلى كل حال .

العدل الذي قال فيه القرآن :

(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقربُ للتقوى)

وقال : (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين)

فتجعل النفس هذا العدل قصدها وغايتها ، وأملها ومُنيتها ، وتسير إليه دائبة ، وتسمو له جاهدة ، حتى تبلغه أو تقاربه ، أو تبقى راغبة فيه ، سائرة إليه على قدر الطاقة ، حتى تبلغ أو تقارب أو تنقطع دونه وقد سارت إليه مراحل ، وضربت في طريقها أمثالا وخلّفت فيه آثاراً .

بهذا العدل قامت السموات والأرض ، واستقامت الخليقة ، واتسقت أمور الأمم .

(والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألاّ تطغوا في الميزان ، وأقيموا الوزنَ بالقسط ولا تُخسِروا الميزان)

فإذا عدل الواحد فيما بينه وبين الناس ، وعدلت الجماعات فيما بينها ، والتزمت العدل وآثرته وحرصت عليه ودأبت ، زال البغى والعدوان والظلم والطغيان ، وكل ما يعثّ إلى هذه المعاني ، مما هو خلل في النظام ، وميل في الميزان وحيد من الائتلاف والوئام ، ونزوع إلى الاضطراب والخصام .

وإذا زال التنافر والتنازع والتنابذ في صورها الكثيرة ، وأحوالها المختلفة ، وغلبت قوانين العدل العامة المؤلفة الجامعة ، وأخذ الوحدان والجماعات بالحق وأحبت به ، ومرّقت منار

الأمور وكبارها بالعدل ، ائتلفت الأعمال ، وانقلب البغض حباً ، والاختلاف ائتلافاً ، والخصام وداً ، والتنازع تعاوناً ، والتقاطع تماسكاً .

تمثل الوحدان والجماعات ، وقد أخذ كل حقه وأعطى حق غيره ، وتعاونت الألسن والأيدي والقلوب على خير البشر وسعادة الناس ، وتحول هذا الجهد الدائب والعمل الناصب في تدريب الجند ، وإعداد السلاح ، وتدبير خطط القتال ، إلى التسلط والتعصب والجور ، إلى اجتهاد في إسعاد الناس دون تفريق بين شرقي وغربي وأسود وأبيض . وانقلبت مصانع الدمار وآلات البوار مصانع للعمران وآلات لرغد العيش ، وجلب الرفاهية للناس ودفع الشر ومغالبة الفقر والمرض وما يتصل بهما من بؤس وتعاسة .

تمثل هذا ثم اعجب لهذه الإنسانية الضالة ، والبشرية الشقية تملأ الأرض والسماء عداء وقتالا ، وتشتغل بالقتال والإعداد له عن خيرها وسعادتها ، ثم تحاول بعد كل معركة غسل الدماء ، وضمد الجراح ، ودفع البؤس غير آلية في الإعداد للمعركة الأخرى . ولن يستقيم للناس العمل للخير والشر والسعادة والشقاء معاً ، لن يستقيم العمل للحرب والسلم ، والسعي للعمران والدماء سواء ؛ فإما عملوا للخير خالصاً والسعادة ، وإما عملوا للشر والتعاسة . يرجون النجاة ولا يسلكون مسالكها ، ويقصدون الخير ولا يسيرون على نهجه !

(ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) .

(ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السموات والأرض) .

* * *

كل هذا القلق وهذا الشقاء مما حاد الناس عن العدل . إن آفة الناس في البغي والعدوان ، وشقاؤهم في الأثرة والعصبية التي تحيد بهم عن العدل ، وتنأى بهم عن التحاب والتعاون .

* * *

وإذا تعامل الناس بالعدل بينهم ، وضعفت الأثرة أو امحت في نفوسهم ، ارتقوا من بعد درجات إلى الفضل في المعاملة ، والإيثار فيما بينهم . ووراء هذا درجات من السعادة لا تنتهي .

يرى كثير من الناس أن هذا خيال أو حلم ، وأن الناس لن يتعاملوا بالعدل مقيداً أو مطلقاً ، ولن يكفوا عن العدوان والبغي . ولست أذهب مذهبهم .

ففي وجدان الإنسان خير ، وفيه نزوع إلى الحق والعدل إذا أوقظت في نفسه دواعي الخير بالدعوة الصالحة ، والأسوة الحسنة ، وإذا أحيط من العلم والعمل بما يعظم رغبته في الخير ، وصدوده عن الشر وينبه معاني الحق والعدل في وجدانه .

وإن كانت درجات العدل التي ندعو إليها أرفع من العامة ، وأعلى من الدهماء ، فليس بعيداً أن يستجيب لها في كل أمة طائفة من أولي العقل والعلم . وإذا قامت في كل أمة أئمة تدعو إلى العدل ونبغ فيها قادة تسير عليه وتعمل به وصرفوا الأمور بالعدل المطلق وأخذوا الناس به طوعاً وكرهاً عمت الأسوة ، وسكن الناس إليها وغلب العدل في قلوب الناس وأعمالهم ، واستقرت عليه الأمور ، وشاعت به المحبة والسلام ...

(للكلام صلة) عبد الوهاب عزام

مصطفى كمال الزعيم التركى

بقلم الكونت سفورزا وزير خارجية إيطاليا

للأستـــاذ أحمد رمزى بك

(تتمـة)

وددت كثيراً لو أن ما رأيته فى المؤتمر الذى عقد بلندرة فى فبراير سنة ١٩٢١ كان كافياً ليكشف الغطاء من أنظار أولئك السياسيين الذين أبوا أن يصغوا لأى نصيحة فيتبينوا الحقائق .

حضر إلى هذا المؤتمر وفدان تركيان ..

الأول يمثل تركيا الرسمية حكومة السلطان المعترف بها وعلى رأسه توفيق باشا ، وهو رجل طاعن فى السن محترم من الجميع تولى الصدارة العظمى عدة مرات .

والثانى وفد حكومة أنقرة برأسه وزير خارجيتها بكير سامى بك . وقد رفضت الحكومة البريطانية استقباله حتى لا يؤخذ هذا منها بأنه اعتراف رسمى بحكومة الكماليين .

ولكن كم كانت دهشة المفوضين الأوربيين الذين كانوا يؤملون رؤية أعضاء الوفدين تفرق بينهم الكراهية والبغضاء أن يجدوهم فى تآلف تام جالسين على نفس المقاعد .

وكم كان تعجبهم لدى رؤية ذلك الشيخ الوقور توفيق باشا يقف بما له من حق الرياسة على المندوبين الترك فيعطى الكلمة لبكير سامى بك رئيس وفد أنقرة الذى تكلم بالنيابة عن الوفدين

وقد أدرك بكير سامى بك قيمة النصائح التى أسداها إليه المسيو بريان رئيس الوفد الفرنسى والتى أبديتها من جهتى بالتمسك بخطة معتدلة ونذر ما يمكن أن تكسبه قضية بلاده إذا أظهر أنه أكثر رغبة من المفوضين اليونان فى قبول رأى هيئة تحكيم منصفة .

وبناء على هذه الخطة تم قبول اقتراح التحكيم ومشروع إجراء التحقيق الدولى فى آسيا الصغرى .

وكان هذا القرار على جانب عظيم من الأهمية السياسية لما قد يأتى به من النتائج الحاسمة ولأن فى قبول دول إنجلترة وفرنسا وإيطاليا إجراء تحقيق فى الأناضول اعترافاً ضمنا من واضعى معاهدة سيفر، أنهم لم يحسنوا استقاء المعلومات الحقيقية فبنوا أعمالهم فى سياستهم الشرقية على مبادئ غير مستقيمة مع الواقع .

ولم يكن لدى الزعيم التركى ما يحمله على التشدد ، لأن كل الظاهر تدل على أنه قد اقترب من الحصول على صلح يصح أن يقبل .

* * *

ولكن لم تمض ثلاثة شهور على هذا حتى انهار كل البناء لأن حكومة أثينا رفضت الاعتراف بقرارات لجنة التحقيق ولجأت إلى تحكيم القوة .

فكانت هزائمهم لسنة ١٩٢١ التى أعقبت توغلهم فى الداخل وانتهت بتراجعهم إلى خط أفيون قره حصار وكوتاهية حيث وقفوا سنة بطولها ينتظرون ، ذلك لأن الزعيم التركى أراد لهم هذا — وقد يكون المرء فى تريثه وإمهاله لخصمه أكثر شجاعة منه فى مبادرته بالهجوم ومناجزته لعدوه .

وهكذا تحفزهم سنة بطولها حتى أتم عدته ثم قضى عليهم بضربة كانت الأخيرة .

لأنه فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٢٢ هاجم أفيون قره حصار، وفى اليوم التالى أتم فتح الثغرة فى قلب الجيش اليونانى ، فأصدر القائد العام الجنرال تريكوبيس أمراً بالتراجع انتهى بتمزيق الجيش كله ووقوع القائد نفسه أسيراً فى يدى مفرزة من الفرسان الأتراك ، وكان ختام المعارك احتلال أزمير التى دخلها الترك بعد مضى أسبوع واحد على اختراقهم الجبهة .

أعقب ذلك ضياع الملك من يدى قسطنطين ثم اجتماع مندوبى إنجلترة وفرنسا وإيطاليا فى ١١ أكتوبر سنة ١٩٢٢ ليوقفوا الحركات العدائية بهدنة مودانية التى اختتمت بضعها أربع سنوات مملوءة بالأوهام والأخطاء ، والتى أرجعت لحكومة أنقرة استانبول وتراقيا الشرقية وأدخلت جيشهم إلى أوربا منتصراً تحت قيادة مصطفى كمال الذى فكر بعض عمال بريطانيا عند بدء الاحتلال فى نفيه إلى مالطة .

* * *

وليس الغرض من سياق هذا الحديث والدخول في التفاصيل أن أشرح حوادث كنت شاهداً لها وعاملاً فيها بطبيعة المراكز التي شغلتها كندوب سام لإيطاليا في الشرق أو وزيراً للخارجية الإيطالية في روما أو سفير لإيطاليا في باريس وقت عقد هدنة مودانيا ، وإنما قصدت أن أشير في هذه التفاصيل إلى الأسباب الخارجية الحقيقية التي سببت نجـــاح الزعيم التركي وساعدته على الوصول إلى هذه النتيجة .

* * *

لقد حكم الزعيم التركي بلاده منذ ذلك التاريخ كدكتاتور ، وأظهر رغبة وحماساً شديدين للتجديد والتبديل متجهاً بكليته نحو أوربا بشكل جعل مفكري الغرب ينظرون إلى هذه التغييرات بغير النظرة التي كان ينتظرها منهم ، لأن أغلبها مظهرى ، ثم هى ثانوية بجانب الأعمال الضرورية الأخرى ولم تقتصر نتيجتها على إهمال التقاليد الإسلامية التي طالما استمد منها الشعب التركي قوته وجلده في القرون الماضية .

والخطأ العظيم الذي ارتكبه الزعيم في عمله الإصلاحي هو محاولة الجرى بسرعة لم يجرؤ عليهـا المصلحون الذين تقدموه ، ولا يبعد أن تكون وسائل الاتصال الحديثة من السكك الحديدية وغيرها وما طرأ على العالم بعد الحرب العظمى قد أثرت فيه وجعلته يعتقد أن فكرة التقريب بين شعوب تختلف اختلافاً كلياً في الأفكار والعواطف أصبحت أمراً سهلاً مستطاعاً في الوقت الحاضر .

ولكن هذه الإصلاحات الغربية مهما تشعبت وكثرت فلن تكوّن في يوم ما إلا دوراً ثانوياً بجانب العمل الكبير الذي قام به الزعيم كمنظم وموجد للقوة العسكرية التي كوّنها من العدم في بلاده ، ثم كمحرك لعوامل الدفاع والجهاد بين قومه ، وسيبقى اسمه كجندى وبطل من رجال الحرب يذكره التاريخ دائماً مقروناً بالحركة العظيمة التي كان على رأسها .

وقد امتاز مصطفى كمال في كل أدوار حركته الاستقلالية بتيقظه وضبطه لنفسه وطول أناته ؛ وكان في أشد الأوقات وأعصبها مالكاً لحواسه شديد الحذر في تصرفاته بقدر ما كان سريع الإقدام والتنفيذ في إصلاحاته وتغييره الطربوش وأخذه بالقبعة .

ولطالما دفعه أنصاره — وفريق منهم يبطن الكيد له — إلى التعجل ، فكان يأبى إلا أن يصبر الشهور الطوال وهو لايبدى نشاطاً للقتال ، بل يجمع قواته ويزيد في معدات جيشه ، ويزن الأمور حتى يتأكد من أن كل عوامل النجاح في صفه ، ثم يوجه ضربته الأخيرة . وما إن يقذف بقواته حتى يرى أعوانه أن ذلك التباطؤ الذي طالما أخذوه عليه قد انقلب إلى دفعة ومناجزة للخصم قوية يسيرها نشاط دائم منظم لا يوقفه عائق حتى يقذف بالأعداء إلى البحر .

والذي يدهش له الإنســان أن هذه الصفات التي ملكها الزعيم التركي لم تغادره وهو في أعلى قمة مجده وعلى رأسه أكاليل النصر وطوع أمره جيش يترنح بنشوة الظفر — لأنه غداة المعارك التي اكتسبها تلاقت طلائع جيشه أمام غاليبولى بقوات بريطانية تحاول منعه من العبور إلى الشاطىء الأوربي إذ قرر لويد جرج ساعتئذ أن يوقف سيل الجيش المنتصر أمام المنطقة المحايدة المضايق ، ومعنى هذا قيام حرب جديدة .

وكان رئيس وزراء بريطانيا مصمما على هذا الرأى على رغم مخالفة فرنسا وإيطاليا له ، بل وقبل أن يستشير رؤساء وزارات الممتلكات البريطانية الحرة — الدومنيون — قبل قذفه بالأمبراطورية في غمار حرب جديدة ، وهذه غلطة أخذها عليه السياسيون الإنجليز لمخالفتها لنصوص نظام تكوين أمبراطوريتهم .

ولكن الزعيم التركي فاز بصبره عليه إذ عرف كيف يتجنب خطر ذلك الموقف الزلق ، وكيف يدرأ عن بلاده مصيبة حرب جديدة ، وقدر على نفســه وهو في قمة مجده وبيده مقاليد رجال طوع إشارته ، فردها عن سراب الأطماع وأخضع نفسه لإرادته

ويلذ لي هنا ذكر ما كتبه تشرشل وهو الواضع مع لويد جورج أساس السياسة التي اتبعتها بريطانيا في الشرق الأدنى والمسئول معه عن نتائجها وإن كان كلاهما لم يقدر تماماً ما كان للزعيم التركي من فضل في حقنه للدماء وإيقافه اشتعال حرب جديدة مع دولة أوربية بعد أربع سنوات من انتهاء الحرب العظمى قال . .

« وجه كمال كل مجهوده إلى الغرض الأساسي الذي أمامه والذي كان من السهل الوصول إليه واستعمل قوات الفرسان

التي كانت تحمي جناحيه ليظهر قوته أمام الإنجليز المحتلين لجناق — ولكنه أصدر لضباطه تعليمات صريحة شديدة ليتحاشوا القيام بأي مظهر عدائي، وأن يكون تقدمهم بطريقة ودية. ولم يتغير تصرفهم هذا أمام كل الظروف التي اعترضتهم، بل ذهبوا إلى إظهار التآخي بطلب بعض المهمات والأشياء التي يحصل تبادلها بين قوات متحابة معسكرة في مكان واحد — وبهذا أمنت كل القوات البريطانية التي كانت عتلة للضيق في الوقت الذي كان الخطر عدواً فيه باستانبول التي لم يكن من اختصاص بريطانيا الدفاع عنها.

* * *

لقد عرفت عن كثب أنور باشا وهو قائد من رجال الحرب نبغ من بين أحرار الأتراك، وكان عاملاً من أول الحركة التي أنشأتها جمعية الاتحاد والترقي، ثم قائداً في حرب طرابلس ضد إيطاليا، وأخيراً في الحرب البلقانية

ولم أر اليأس قط متغلباً على أنور حتى في أشد الأوقات محنة حينما كان البلقانيون على خطوط تشا طلجة، ولكن مزاياه الخلقية والفكرية كانت تتضاءل أمام حبه للمباهاة بنفسه وخيلائه.

ولذلك قصر من تلك القسوة على النظر بدقة إلى الأمور وتفهم الأشياء على طريقة كمال الذي يتبع خطة للعمل يقرن فيها الإقدام المتناهي مع الصبر والتأني الطويل ويعرف كيف يُملي على نفسه وهو قائم بحرك الجيوش على جبهة القتال — وهذا هو سر نجاحه —

وهذا دليل على أن الروح العسكرية القديمة التي كانت لدى العثمانيين القدماء ومكنتهم من ترويع أوربا ومقارعتهم لها وهم تحت أسوار فينا قد عادت وتقمصت فيه.

ولكن المهمة السياسية التي ألقيت على عاتق هؤلاء كانت سهلة ليست مستعصية كالتي تلقاها خلفهم في القرن العشرين لأنهم دخلوا أوربا منتصرين واحتلوا بلاداً وأقطاراً شاسعة وكان من حقهم إهمال من يعيش فيها ما دامت القوة في جانبهم

إلى أصرف النظر كما ذكرت في السابق عن موضوع إصلاحاته الغربية التي أعدها من قبيل عمل المسيطرين الغواة التشبهين بطريقة بطرس الأكبر — وأعود إلى سياسته التي أوجدها لنفسه أمام الظروف القاسية التي وجد فيها بلاده، تلك السياسة التي أملاها بحزم، وقصر نفسه عليها من البدأ إلى النهاية ثم داوم على اتباعها مخالفاً بذلك تقاليد الدكتاتوريين الذين قبله وما بعده دكتاتوريو هذا العصر.

لأن كلا منهم في حاجة إلى اتباع سياسة مظهرية ترمي إلى إدخال الهيبة في نفوس العامة، وفي حاجة إلى إشغال الشعوب التي فقدت حريتها بشيء من الجد.

وأرى مصطفى كمال الأول من هذا النوع من الناس الذي أوتي من الشجاعة الأدبية ما جعله يقرر من أول الأمر أن يقصر نفسه عن هذه المظاهر المخربة — ثم أن يداوم على حرمان نفسه وعدم إشغال أمته بمثل هذا بعد انتصاره وقد بلغ من الأمر منتهاه. فكثيراً ما هددت الدولة العثمانية بخلافتها وبإعلانها الجهاد رغبة منها في الظهور بمظاهر الدولة ذات السياسة العالمية وإن كانت تمثل الرجعية والتقهقر بأجلى مظاهرها. وجاء مصطفى كمال فكان أول من تحقق من أن مصلحة تركيا تقضي بتنازلها عن أي نفوذ أو سلطة خارج حدودها القومية، ولذلك وضع نصب عينيه أن يتحاشى إشغالها بأي عمل يشتم منه الرغبة في مغامرات خارجية فوق طاقتها.

وقد عاينت ذلك بنفسي في الشهور الأولى من عام ١٩١٩ حينما كنت باستانبول وتيقنت من أن الزعيم التركي قد عزم على اتباع هذه السياسة الإيجابية التي تؤدي حتما إلى استقلال فعلي حقيقي لتركيا.

وكان قد لجأ إلى بروسة في تلك الأيام السيد أحمد السنوسي الزعيم الديني المشهور في برقة حينما أيقن من ضياع آماله في إخراج الإيطاليين من بلاده. ولما كنت مقتنعاً بأن السياسة العملية الوحيدة لتوطيد الأمن والسلام في ربوع المستعمرتين الإيطاليتين تتلخص في إعطاء الأهالي الوطنيين شيئاً من الحكم الذاتي الواسع النطاق، لم أتردد لحظة واحدة في قبول المفاتحات التي عرضها علي أصدقاء السيد السنوسي بإستانبول، وفعلا دخلت معه في محادثات طويلة على الطريقة المعتادة للشرقيين انتهت به إلى فهم وتقدير مشروع اتفاق مع الحكومة الإيطالية يعطي للسيد سلطة متسعة في الداخل على شرط أن يعترف نهائياً بسيادة إيطاليا على بلاده وأن يعطي المواثيق بتشجيع ومساعدة المصالح الاقتصادية والسياسية في بقية الجهات الواقعة تحت حكم إيطاليا مباشرة في طرابلس وبرقة.

وقد عقد فعلا وزير المستعمرات الإيطالية السنيور لويجي

طرائف من العصر المملوكي :

الشكوى في شعر ابن نباتة

للأستاذ محمود رزق سليم

لا ريب أن البشرية غايتها السعادة ؛ فهي تسعى إليها أفراداً وجماعات ، وتطرق كل باب يؤدي إليها ، وكل سبيل تفضي نحوها . — وقد اختلف الناس — ولا يزالون مختلفين — في كنه السعادة وفي الوسائل المؤدية إليها . ولكن — ليت شعري — أيكون البؤس مظهراً من مظاهر السعادة ، أو يكون وسيلة من وسائلها ؟ تساؤل ، لأن النفوس مختلفة الطباع ، متباينة الاتجاه . ومن الناس من يجد لذته في شقائه ، وسعادته في بؤسه . إذ خلقت نفسه ذات طبيعة قلقة حائرة تنشد الهدوء ، حتى إذا وجدته نفرت منه ، وعاودت سعيها إليه . وتطلب الرضا ، حتى إذ ظفرت به ونعمت بأسبابه ، قطعت مابينها وبينه ، ثم شاقها الحنين للبحث عنه . هذه نفوس من طراز خاص توسع في آمالها ما أفسح لها الخيال ، وتمس في سبيلها ما بدا لها السعي . حتى إذا وصلت إلى أمل جددت أملا ؛ وإذا ما انتهت من سعي عاودت سعيا . لأن غايتها في السعي نفسه ، لا في عاقبته . ولأن إربتها في البحث ذاته ، لا في نهايته . فهي أبداً في عمل دائب وهم ناصب . وهي لقلقها الذي فطرت عليه ، وحيرتها التي حاقت بها ، لا تستريح إلى طريق في الحياة ممهدة معبدة ، لا أمت فيها ولا عوج . ولا تطيب لها السبل ، إذا امتلأت جنباتها بالورود والأزاهير . بل تفضل منها المعقدة الملتوية المجدبة ، على السهلة المستقيمة المخصبة . وتختار المشقة على اليسر ، وتؤثر التعب على الراحة . كل ذلك لا ليقال : مجيدة بلغت السيادة بجدها وجهادها ، ولا ليقال : فريدة حازت السعادة بكدها وجلادها ، بل لكي تلائم بين هذه المشقات وبين طبيعتها ، وما فيها من قلق وحيرة . ولكي تجد فيها من الأسباب ما ترتل عليه شكواها وتوقع أنينها . فهي مطبوعة على حب الشكوى ، تجيدها وتجد فيها راحتها ، ومفطورة على

روس على أساس هذه المحادثات اتفاقاً حكيا جنت منه إيطاليا ثمرات عديدة حتى جاءت الحكومة الفاشية فضربت به عرض الحائط ، لأنها وجدت في المستعمرتين ميداناً واسعاً لاستغلال منشوراتها وتقاريرها عن انتصاراتها الحربية التي يضحك المتأمل عبث القيام بها بجانب ما تتكلفه من التكاليف والخسائر .

ولم يكن منتظراً بقاء مثل هذه المحادثات في طي الخفاء ونحن في جو استانبول لأنها سرعان ما تنتقل إلى علم أنصار مصطفى كمال وقد يعملون على إحباطها ، ولذلك رأيت من المصلحة إبلاغه منها فجاءني منه الرد الآتي :

« كان علة شقائنا وسقوطنا محاولاتنا المحافظة على سيادة تركيا على الأقطار العربية فنحن لا نريد أن نسمع من الآن شيئاً من ذلك . . والسنوسي حر في أن يفاوضكم على ما يرغب وأن تتفقوا معه على ما تريدون » .

ولقد زادني هذا الرد القاطع المقرون بالصراحة اعتقاداً في أننا على وشك أن نلمس عصر إحياء جديد في النفس التركية — ووصل مصطفى كمال إلى أوج ما ينشد من المجد والسلطة فلم يغير من خطته هذه — وهو موقف يستدعي الإعجاب والتقدير وهو نادر في نفس الوقت .

لقد عرف من البداية أن الدولة العثمانية بلاد متأخرة تقع بين أوربا وآسيا ، وأن تركيا إذا اقتصرت على توجيه قواها إلى استغلال آسيا الصغرى أمكنها تحت نظامها الجديد أن تصير عامل حضارة وتقدم ، وقد يأتي يوم تلعب فيه دوراً مهماً تجـاه آسيا الوسطى .

وهنا يظهر عمله الإنشائي الحقيقي الذي أتمه بحنكة وشجاعة وإن بقي مجهولا لدى الكثيرين بجانب ما يتحدث الناس به من إصلاحاته الثانوية في تغيير الحروف وفرض القبعة .

وإنه لمن الشرف له أن يشاد بعمله هذا وأن يقال إن هذا الزعيم وصل من بين الدكتاتوريين أن يجني ثمار نجاحه بحق ، لأنه أقدم على ما لم يقدم عليه غيره ، وعرف كيف ينظر شزراً إلى مخلفات سياسة المجد الكاذب التي كانت تتبعها الحكومة العثمانية السابقة والتي لم يكن لها غرض إلا ما تحدثه من الضجيج الفارغ والضوضاء الكاذبة ...

أحمد رمزي

الأنين نحيبه، وتستشعر خلاله طمأنينتها. وهي لا تستطيع الحد فلا تجأر به، ولا تستسيغ الرضا فلا تهدأ إليه. ولو راحت تحمد وترضى، ما استطاعت ذلك إلا متشكلة مجهودة، ومتعبة مكدودة.

هذه نفوس من طراز خاص كما أشرنا. وتأبى الأقدار إلا أن تهيء لها كل العوامل التي تنضج فيها هذا الفن من فنون الحياة فتلقى في طريقها الأشواك، وتبث الشراك، حتى يكثر عثارها، ويتكرر نفارها. وهي — في الحق — راضية في قرارتها، هانئة في أعماقها؛ لأن ما تمنحه لها الأقدار يتلاءم مع سجيتها، وينسجم مع طبيعتها. وهكذا تبدو بائسة يكاد يأكلها البؤس، وتعسة يكاد يطويها النحس. فتفر بقلقها من دار إلى دار، ومن سبيل إلى أخرى. تنشد ما تزعم من سعادة وعزاء، شاكية آنة، باثة حانة. حتى إذا ما ظفرت نفرت وإذا وصلت فصلت. ولم تستطب هذا الاستقرار، ولا ما هياه لها من سعادة، ولا مادعاها إليه من لهج بالحمد والثناء.

تتجاذبنا هذه الخواطر كلما جلسنا إلى ديوان ابن نباتة الشاعر المصري الكبير، لنقرأ طرفاً من أبياته؛ إذ نرى فيها شاعراً بادى القلق ظاهر البؤس، كثير الشكاية. وتلك سمة واضحة في شعره، وفي مراحل حياته.

كان جمال الدين بن نباتة «٦٨٦هـ — ٧٦٨هـ» أمير شعراء مصر في جيله غير منازع. وهب الله له نفساً أدبية خصيبة، وخيالا واسعاً رحيباً، ولساناً طلقاً، ومنطقاً مصوراً بارعاً. فهام لذلك في أودية الشعر، وطرق الجم من فنونه. وحق له أن يفخر بقوله:

فما الدر إلا دون نظم أصوغه وما القصر إلا دون بيت أشيده

ويقول:

من مبلغ العرب عن شعري ودولته أن ابن عباد باق وابن زيدونا

ظن ابن نباتة، وقد طاع له من القول عصيه، ودان له من الشعر أبيه، أن من حقه على الزمن أن يسعده لا يجحده، وأن ينعمه لا يشقيه، وأن يهيء له من أسباب الرضا ما تقر له عينه، وتطيب به نفسه، حتى يستغرق جهده، لفنه وحده لا تشغله عنه شواغل الحياة، ولا تقعده دونه هموم الرزق.

ظن ابن نباتة ذلك، ولم يسلم أن الزمان قد استحال، وأن الدهر قد تغير، وأن دولا ذهبت، وجاءت على أنقاضها دول. وأن الملوك قد استعجمت بل والشعوب، وذهبت أيام الرواج للشعر، وطويت بسط الإنشاد، وانفض سامره، وتقضى عهد التكسب، وقبضت يد العطاء عن الشعراء، وأقفلت في وجوههم جنات النعيم.

هذه حقيقة فطن لها أنداده من شعراء عصره فلووا جيدهم وانصرفوا عن التكسب بالشعر إلى التكسب بغيره. فكان منهم العالم الفقيه، أو الكاتب المنشيء، أو التاجر المتنقل، أو المحترف الصانع. والتمسوا الرزق بالوظيفة في القضاء أو الكتابة في الدواوين، أو التجارة والصناعة. وروحوا عن أنفسهم بين الفينة والفينة بأبيات من الشعر ينظمونها في حاجاتهم النفسية. ولم يسلموا مصيرهم إلى يد الشعر، يستمطر لهم الرزق من الملوك وأشباه الملوك، كما كان أسلافهم في عهد بني أمية، وعهد بني العباس — حتى بدا لبعضهم أن يحمل على صناعة الشعر، ويفضل عليها صناعته الدنيا التي يقتات منها. ويطل في ذلك فيحسن التعليل، ويورى فيجيد التورية. وقد قال أبو الحسين الجزار «٦٧٩هـ»:

كيف لا أشكر الجزارة ما عشـ ـت حفاظاً وأرفض الآدابا
وبها صارت الكلاب ترجيـ ـني وبالشعر كنت أرجو الكلابا

أما ابن نباتة، فقد صمم على أن يعيش لفنه، لا تلهيه عنه تجارة أو بيع — ظانا أنه سيدر عليه من الذهب النضار، ومن الفضة النثار. فانساق إلى مهواة التكسب حتى أدركته حرفة الأدب، ولحقه كساد الشعر وبواره. ولم يجن من وراء ذلك إلا القلق والبؤس وصار كما يقول عن نفسه وهو بدمشق، متذكراً ما مضى من أيامه:

شهور وصل كساعات قد انقرضت بعين أحب وأعوام كأيام
ولّت كأني منها كنت في سنة ثم انبرت لي أيام كأعوام
متنقلا بيد الأيام مضطربا كأنما استقسمت مني بأزلام
قد حرمت حالتي طيب الحياة بها كأن طيب حياتي طيب إحرام
هي المقادر لا تنفك مقدمة وللمحيا خطرات ذات إحجام

وهذه حالة لا مفر منها ، مادام قد طرق أبوابها ، وسلك رحابها . وماظنك بمتكسب في غير سوق ، وسادر دون وثوق . يترك بابا ليقرع بابا ، ويهجر مقصوداً ليمم شطر مقصود . هذا يعطيه وذاك يعنه ، وهذا يهب له وذاك يدفعه . وهو ما بين هذا وذاك ساخط على من حرمه وقلاه ، شاك فيمن منحه وأعطاه . هذه — لعمرك — حياة المتبطل الكسول الذي لم يلبس لبوس عصره ، ولم يرتد مسوح زمانه . يقول :

يا سائلي بدمشق عن أحوالي قف واستمع عن سيرة البطال
ودع استماع تنزل وتمشق ماذا زمان الشق والأعزال
طول النهار لبابذا من باب ذا أمسى لعمر أبيك سمى ظلال

ويقول منها :

أرى الزمان يمينى ولاية أحمى بها وجهى من التسآل
زحل يقارن حاجتى وقد انحنى ظهرى من الهم انحناء الدال

لم تهتم القادر بإجابة ابن نباتة إلى سؤله ، بل ادخرت له في جعابها أقسى ما ادخرت لإنسان . وحفظت له في قرابها أحد ما أرهفته لامرئ . وهى تعلم — بلا ريب — خبيآت نفسه ومغيبات حسه . فادخرت له ما ادخرت ، وأرهفت ما أرهفت للاءمته لها . وبذلك وحده ، ينبغ أدبه ، وينبغ فنه ، ويصبح شاعر البؤس والشكوى . وما كل بائس يلتئم مع بؤسه في أعماق نفسه . أما ابن نباتة فقد نعم بهذا البؤس ، لأن نفسه وجدت فيه معيناً لشكايتها حتى خلقت لتجيدها وتحسن القول فيها . لهذا جاء شعره ترجاناً صادقاً عن مطوى نفسه ، ولساناً معبراً عن مذخور حسه . وصارت الشكوى في خلال أبياته ، على اختلاف منازعها ، اللون الأصيل ، واللحن المشترك ، الذي لا تتم ألوان القصيدة أو أنغامها إلا به . يقول وقد عجل إليه المشيب :

عجبت خلق لو خط مشيبي في أوان الصبا وغير عجيب
من يعم في بحار هم يظهر زبد فوق فرعــه التريب
من محارب حوادث الدهر يخفق لون فوديه في غبار الحروب
أى فرع يجون على محن الأ يام يبق وأى غصن رطيب
لو هى ماء ممطق من الســين لأنفته مهجتى بلهيب

ونعتقد أن ابن نباتة ، كان في مقدوره أن ينجو بنفسه بعيداً عن محنه ، وأن يجنبها مشاق الحياة ووعثاء العيش بالارتزاق بإحدى الطرق المألوفة في زمانه ، وأيسرها عليه الكتابة في ديوان الإنشاء . ونعتقد أنه لو سعى جاداً إلى الوظيفة لظفر بها . فهو لا يقل باعاً ولا يقصر ذراعا عن رؤساء هذا الديوان ، إن لم يكن في الإنشاء أحفل منهم وأفضل . ولا ندرى ما نعلل به حرمانه من وظائف الديوان — وما خلقت إلا لأمثاله — إلا وثوقه من شعره واعتقاده أنه سيكون سبيله إلى الغنى والثراء والعيش الكريم ، وإلا خوفه مما في الديوان من قيود ونظم لا تتلاءم مع قلقه وحبه للتنقل . ولعل استحواذ جلة من أدباء العصر — أمثال العلاء بن الأثير ، وأبناء فضل الله العمرى — على قلب الناصر سلطان مصر حينذاك ، كان في جملة أسباب حرمانه ، وتأبى وظائف الديوان عليه .

على أن ابن نباتة كانت لأبيه ثروة ما بدمشق ومصر ، وكان يعينه بشيء منها بين الآن والآن . فلما مات أبوه بدد ما ورث في مسارح اللهو ومطارح الهوى ومغامرات الشباب ، وأنفق وأسرف ، وبذر وأتلف ، كأنما وعده القدر أن يهيء له الأمل الجديد في المستقبل السعيد . ولكن القدر ضحك منه ملء شدقيه وأسلمه للحاجة تأزمه ، وللفاقة لا ترحمه .

هذه أمور كان لها أثر في ابتئاسه وشكواه . ويأبى الدهر إلا أن يضاعف له في هذه الأسباب كلما تراخت الأيام وتطاولت عليه الليالى .

فقد ابتلى بالزواج الباكر . والزواج الباكر نعمة وعصمة ، لولا مسئولياته الضخمة وأعباؤه الثقال . ولو كان ابن نباتة في بحبوحة من العيش ، وسعة من النعمة ، لما أرهقه الزواج وآده . وقد كان شاعراً . والشاعر تطن الأحداث في دنياه الباطنة طنيناً مضاعفاً . وكانت أوتار نفسه تجيد ألحان الشكوى ، فوجدت في أحداثه ما يحسن التوقيع عليها .

لقد ولد له نحو ستة عشر وليداً . والأبناء عزة وقوة وزينة ، إلا مع الفاقة ، فإنهم ذلة ومحنة ومذمة … هكذا جرى العرف بين الناس . يقول ابن نباتة :

لقد أصبحت ذا عمر عجيب أقضى فيه بالأنكاد وقتى
من الأولاد خمس حـول أم
فوا حرباه من خمس وست

ويقول :

كنت في الشعر جواداً يحرز السـبق بلمحه
فتنـاني الدهر والأو لاد لا أملك نصحه
كل ابن لي وبنت كشكال لي وسبحه
وزناد القول لا يسمح في وجهي بقدحه

وتأبى الأقدار مرة أخرى إلا أن تتخذ من هؤلاء الأبناء هدفاً تقذفه فيه وتصميه منه . فقد كان أبناؤه يموتون واحداً إثر واحد إذا بلغوا الثامنة أو نحوها . فتكررت فجيعته في كل واحد منهم يوم ميلاده ويوم وفاته ... بكاهم وأودع في رثائهم ما في قلب الأب من وله ولوعة ، وما في صدره من زفرة ، وفي عينه من دمعة ورثاء الأبناء من أمر ضروب الشكوى . يقول الشاعر في رثاء ولده عبد الرحيم .

أسكنت قلبي لحدك لا خير في العيش بعدك
يسيل أحمر دمعي لما تذكرت خدك
وقدّ بالهم قلبي لما تذكرت قدّك
يا سائل الدمع إيه فما أجوّز ردك
أقصدتني يا زماني كأنني كنت قصدك
وكان ما خفت منه فاجهد الآن جهدك ... الخ

نبا بابن نباتة المقام بمصر ، فنزح إلى دمشق ولقي وزراءها أبناء فضل الله العمري ، ووجد من لدنهم شيئاً من الخير والبر أطلق لسانه مادحاً مشيداً بذكرهم ، حتى قال :

من مبلغ الأهلين عني أنني
بدمشق عدت لطيب عيشي الأرغد
وأمنت من نار الخطوب ولفحها لما لجأت إلى الجناب الأحمدي

ويقول شهاب الدين بن فضل الله :

نظرت أبا العباس نظرة راحم لحال امرئ كاد الزمان يبيده
فأحييته بعد الردى وألفته وقد طال من تحت التراب همروده

ولكننا لا ندري بالضبط ما الذي نفره من دمشق فزايلها إلى حماة ، إلا ما كان في نفسه وطبيعته من حب التنقل ، وكراهة الاستقرار . ولعل أريحية المؤيد صاحب حماة ، جاذبته عصا تسياره وحل أسفاره . وهناك في حماة وجد طمأنينة وبلهنية ، ورفاهة ونعيما ، وصحبة كريمة . وظفر منه المؤيد وابنه الأفضل ، لقاء ذلك ، بأعطر ما تطمع فيه الملوك من القصيد . قال يذكر لقاء المؤيد له وعهده :

زمن الأنس تم بالتهاني وتوالي الملك المؤيد يسري
ملك باهي المكارم يروي وجه لقياه عن عطاء وبشر
زرت أبوابه فقرب شخصي وعـا عسرتي ونوه ذكري
ونحا لي من المكارم نحواً صانني عن لقاء زيد وعمرو الخ

غير أن الزمان تجهم له في حماة . ولعل ذلك بسبب وفاة المؤيد ثم زوال الأفضل ، فعاد إلى دمشق يطرق أبواب وزرائها مرة أخرى ، فأدخله ابن فضل الله في ديوان الرسائل . وهكذا نال في شفق حياته ما حرمه وعز عليه في ضحاها . وضج لسانه بشكر ابن فضل حيث يقول :

بلغتني يا ابن فضل الله مطّلباً لم أرجه من بني الدنيا ولم أخل
وقد صوت لديوان الرسائل في على ادكارك لا كتبي ولا رسلي

غير أنه ابتلي حينذاك بتأخر مرتبه ، وانقطاع هبات علاء الدين بن فضل الله وتغير قلبه عليه . وكان ذلك مثاراً لشكاية ابن نباتة فمدح علاء الدين مدحاً امتزج فيه العتاب واللوم ، والاعتذار والشكوى ، والأمل والرجاء . فمن ذلك قوله :

أمولاي قد غنى بعدمي لك الورى
وسارت به الركبان في السهل والوعر

إلى أن قال :

على أن عندي كأس شكوى أديرها
على السمع ممزوجاً بعدمي النثر
أيكسر حالي بالجفاء وطالما تعودت من تمثاك عاطفة الجبر
ويدفعني عن قوت يومي معشر وأنت عليهم نافذ النهي والأمر
ولو كان ذنب لاعترفت به ولا تحيلت في عذر ولاجئت من فغر

ويقول له :

يا صاحب القبل من لفـظ وفضل ملا
هل أنت مصغ لما تمليه أحـوالي
ماتت يد الدهر يومي وقد بليت أضعاف ما بليت بالهم أقوالي

وقد تكررت هذه المعاني منه في أبيات كثيرة . ومما زاد في

آلامه حينذاك أن اشتد به الحنين والشوق إلى بقية أبنائه عن تركهم بمصر ، وكأنما أبقاهم بها وسيلة ميسورة لقلقه وهمه وشكواه . يقول :

صب بمصر حيث أولاده بالشام يذرى الدمع مصبوبا
ذو كبد حرى وهم بعضها فالكل يشكو الشوق الهوبا

ويقول :

ياساكنى مصر تبت للفراق يد قد صيرت بعدكم حزنى أبا لهب

ويقول فى سياق مرثيته لابنه البكر يتشوق إلى مصر ومنزل قلبه الموزع :

من لى بمصر التى ضمتك ، تجمعنا ولو يطوف الثرى فيها فيا طرب
ما أعجب الحال ، لى قلب بمصر وفى
دمشق جسمى ، ودمع العين فى حلب

وتنتابه ذكرى أيامه الماضية وماجنت فيه من لذة ومتاع ، والذكرى ضرب آخر من الشكوى ، فيصف شعوره فى أبيات موجعة حيث يقول :

رعى الله دهراً كنت فارس لهوه أروح إلى وصل الأحبة أو أغدو
جوادى من الكاسات فى حلبة المنى
كميت ، وإلا من صدور المها نهد

إلى قوله :

زمان تولى بالشبيبة وانقضى وفى فى طعم من مجاجته بعد

عاد ابن نباتة إلى مصر بعد رحلة طويلة غير موفقة ، إلا فى فترات متفرقة . فلقى من الناصر حسن سلطانها الجديد شيئاً من العطف شكره عليه . ولكن كانت لا تزال جراح قلبه ناغلة ، وعبارات الشكوى على شفتيه حيث يقول :

قضيت العمر مداحا وهنا يا أخى الحال
فقير الوجه والكف فلا جاه ولا مال

آمن ابن نباتة أخيراً بالحظ إيمان المضطر ، وزهد زهد المغلوب . يقول :

هى الحظوظ فمش منها بما وهبت ولا تقل عاليا مزرى ولا دونا

ويقول :

منعتنى الدنيا جنى فتزهد ت ولكن تزهد المغلوب

ويلتمس لكساد أدبه المعاذير ، فيقول :

لا عار فى أدبى إن لم ينل رتبا وإنما العار فى دهرى وفى بلدى

والإيمان بالحظ قد يكون مظهراً من مظاهر اليأس ، ودليلا على القلق والبؤس ، إذ لا يصل المرء إلى حظيرته إلا بعد مدافعة ومعاناة ، وأمل وإخفاق . آمن ابن نباتة بالحظ ولكن إيمان البرم به الساخط عليه ، الذى عالجه فلم ينجع علاجه ، وأوقد له قلبا سراجه . آمن به إيمان المهزوم المستسلم ، وفى نفسه ثورة عليه مكبوتة .

غير أن هذا الحظ الذى نعى عليه ، والقدر الذى عبث به ، قد انضجا فى شعره فن الشكوى . وكم لهذا الفن بين الناس من عشاق !

(حلوان) محمود رزق سليم

مدرس الأدب بكلية اللغة العربية

حديث الصيام :

عدالة قاضٍ

للأستاذ محمد رجب البيومي

« مهداة إلى أستاذي الأديب الشاعر
الراوية أحمد شفيع السيد »

— ١ —

كانت أخيراً بالبحث في تاريخ القضاء الإسلامي فشاهدت صفحات لامعة تترى بالتتبع والاستقصاء ، ووقفت على جهود محمودة لنخبة ممتازة من رجال الحق وأنصار العدالة ، فتعجبت كيف لا تُجمع هذه الدرر الوضيئة في عقد نضيد يكون موضعاً للمفاخرة والمباهاة !!

ونحن لا نستغرب إذ نجد رجال القضاء في عصور الإسلام الزاهية على جانب كبير من التحرر والدقة ، فقد تمكنت تعاليم الإسلام الخالدة من نفوسهم فعرفوا الله حق معرفته ، وقرأوا الكتاب والحديث ودرسوا مسائل القياس وقوانين النظر . هذا إلى ما يشرق في قلب المؤمن التقي من نور يهديه إلى الحق مهما تكاثف الظلام !!

ومن هؤلاء الأئمة الأفذاذ القاضي أبو جعفر أحمد بن إسحق ابن البهلول التنوخي الأنباري . وقد أجمع الذين كتبوا عنه على سلامة استنباطه وصحة توجيهه ، وصدق تدليله . وأنت تجدهم يصفونه — في إسهاب زائد — بالبلاغة العالية إذا خطب أو ترحل كما ينقلون شذرات ثمينة من شعره تُنبئ عن عاطفة وذوق ، ويجعلونه حجة في التفسير والحديث والرواية والإسناد . أما تبحره في الفقه على مذهب أهل القياس فقد بوّأه منصة القضاء أكثر حياته التي زادت على الثمانين . وإذا اجتمع لفاضل من الناس كل هذه المميزات الرفيعة ، فماذا ينقصه من الشمائل والصفات ؟ !

على أننا لا نُكبر الرجل لعلمه وحده ، فكثير من الأئمة في القديم والحديث قد جاوزوه في التحصيل والدراية ، ولكننا ننظر بكثير من الإجلال والإكبار إلى صراحته في الحق دون مبالاة ، وهجومه على الباطل في غير هوادة ، مهما جر عليه ذلك من بلاء وعنت . وناهيك بمن يفاجئ رؤساءه وصدور الدولة في عهده بما لا يطيق المؤمن الورع صبراً عليه من ميل عن الحق ونكوص عن الجادة ، وولوغ في البهتان !!

وها أنذا أقدم للقارئ الكريم موقفين متشابهين له في نصرة الحق ، راجياً أن يكون أسوة حسنة ، ومثالا يحتذيه الناس .

— ٢ —

نحن في أوائل القرن الرابع الهجري ، وقد انحدرت الدولة العباسية من أوجها السابق إلى وهدة سحيقة سقطت فيها هيبة الخلفاء والأمراء ، وتنازع الوزراء وأعيان الدولة على الحكم شر تنازع وأبشعه ، فكان هم كل وزير أن ينكل بمن سبقه ، فيخلق له الاتهامات الخطيرة التي تطيح بحياته ليأمن على منصبه وجاهه فلا يجد المنافس العنيد . وقد كان حامد بن العباس وزير الخليفة المقتدر بالله يضيق ذرعاً بسلفه الوزير أبي الحسن بن الفرات . فالك له من خياله الآثم أنظع تهمة يمكن أن توجه إلى إنسان حيث اختلى بالخليفة ، وأخبره أنه عثر على وثائق هامة تثبت اتصال ابن الفرات ببعض العلويين الطالبين بالخلافة ، وأن الحزم يوجب أخذه بالشدة لتجرى الأمور في وضعها الصحيح . وقد اهتم الخليفة المقتدر بالأمر ، فعقد لفوره مجلساً برئاسته لمحاكمة الوزير السابق ، وقد أحضر فيه علي بن عيسى وأحمد بن إسحق بن البهلول وأبا عمر محمد بن يوسف . وجيء بابن الفرات مخفوراً إلى المحاكمة حيث وقف غريمه الوزير حامد بن العباس أمام الخليفة يبسط التهمة الخطيرة ، ويبين منبتها الجريئة ، ثم اتجه إلى الباب فجأة وصاح بأحد الحجاب : أدخل الجندي في الحال !

فدخل جندي مديد القامة ، مكتمل الصحة ، فاتجه حامد إلى المقتدر وقال : لقد ضبطت هذا الجندي قادماً من مدينة «أردبيل» ومعه كتب خاصة من ابن الفرات إلى ابن أبي الساج يطلب فيها معاونة الداعي العلوي وتجهيزه للمد إلى بغداد ، حيث يستقبله ابن الفرات فيتعاونان معاً على تقويض الخلافة العباسية ، وإنهائها إلى العلويين !!

ثم التفت الوزير إلى الجندي وقال له : قل ما سبق أن اعترفت به لدي فقال الجندي : لقد ترددت بضع مرات على ابن أبي الساج في أردبيل أحمل الرسائل المتنوعة من ابن أبي الفرات جاهلا ما فيها

الخطيرة ، فهو المسئول عنها وحده ، وما أنا غير حامل قدم يتكسب بالسير والتجوال .

وهش الخليفة من هذا الاعتراف الجريء ، وطار شرر الغضب من عينه ، وأخذ يصوب نظراته المحرقة إلى ابن أبي الفرات وهو يتململ في مكانه ممتقع الوجه منقبض الأسارير !

ثم التفت المقتدر إلى القاضي أبي عمر فسأله : ما عندك في ذلك يا أبا عمر ؟! فقال في غير روية : لقد أتى ابن الفرات أمراً تخر له الجبال ، وللخليفة — أيده الله — أن ينزل به ما شاء من العقاب !..

فتألق وجه الوزير بالبشر وظن أن المحاكمة ستنتهي على ما يريده من البطش بصاحبه ، وجعل يرخي عطفه في نشوة الظافر المنتصر ولكنه رأى الخليفة يتجه إلى أحمد بن إسحق فسأله : وما عندك في ذلك يا أبا جعفر ؟ فيقول القاضي : لا بد من مناقشة الجندي ، فلو يأذن الخليفة بذلك ؟ فيجيبه إلى طلبه ، ثم تدور هذه الأسئلة بين القاضي والجندي .

القاضي — تدعي أنك رسول ابن الفرات إلى ابن أبي الساج في أردبيل فهل رأيت أردبيل ؟

الجندي — نعم رأيتها ودخلتها عدة مرات

— صف لي أردبيل ، أعليها سور أم لا ؟

فسكت الجندي .

قال القاضي : وما صفة باب الإمارة الذي دخلت منه ؟ أحديد أم خشب ؟

فسكت الجندي أيضاً

قال القاضي : ومن هو كاتب ابن أبي الساج الذي ذهبت إليه ؟ ما اسمه ؟ ما كنيته ؟ ما لقبه ؟

فبهت الجندي ، ولم يرد بشيء .

قال القاضي : وأين الكتب التي كانت معك من ابن أبي الساج لابن الفرات ؟

فقال الجندي متلجلجاً مضطرباً : رميتها في البحر حين وقعت في أيدي الجنود .

فاتجه القاضي إلى الخليفة وقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله عز وجل يقول : (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) ، وقد صح عندي أن هذا الجندي جاهل يتكسب مدسوس على ابن الفرات

فقال علي بن عيسى في حماسة مشتعلة : قد قلت ذلك مراراً للوزير حامد بن العباس فلم يقبل قولي ، وأرى أن يهدد هذا الجندي بالضرب حتى يقر بالواقع الصريح !

أمر الخليفة بإحضار من يضرب الجندي في المجلس ، فما كاد السوط يلهب جسمه حتى صاح : كذبتُ وغررت ، ومُنِّيت لي الضمانات . والله ما رأيت أردبيل ، ولاحملت كتباً إليها طيلة الحياة !

وهنا أمر الخليفة بحبس الجندي وتعذيبه . وكاد يغشى على الوزير المختال من الهم والانكسار ، وانتصر الحق على الباطل بصرامة القاضي النزيه أبي جعفر أحمد بن إسحاق البهلول !

— ٣ —

كرت الأعوام تلو الأعوام ، فتنمر الخليفة المقتدر على وزيره حامد بن العباس فأقاله من منصبه مخفوراً ، وأسند الوزارة إلى المتهم السابق أبي الحسن بن الفرات ، وتلك الأيام نداولها بين الناس .

ولقد سعى الوزير الجديد — لأول عهده بالرئاسة — إلى قتل غريمه السابق فشفى لواعج صدره ، واستراح من ناحيته ، ثم دار ببصره فيمن حوله من المقربين لدى الخليفة ، فرأى أن الوزير الأسبق علي بن عيسى لا يزال متمتعاً بالحياة ، وقد يتم صفاؤه مع الخليفة في وقت من الأوقات فيعيده إلى الحكم رامياً بأبي الحسن إلى غياهب السجن ، ومن ثم أخذ الوزير يدبر له مكيدة ترديه مع أنه كان من أنصاره المتحمسين يوم حوكم في التهمة الخطيرة ، ولكن بالضيعة الوفاء !

رأى ابن الفرات — لانحطاط نفسه — أن يقتدي بسلفه السابق في الاختلاق والوقيعة ، فاتجه إلى الخليفة المقتدر وأفهمه أن علي بن عيسى على اتصال بالقرامطة أعداء الدولة ، وقد أرسل لهم في مدة وزارته بعض المواد الحربية التي يحظر إرسالها إلى العدو كما أنه لا يعترف بتكفيرهم وخروجهم عن مبادئ الإسلام !

اهتم الخليفة بالوقيعة ، وأصدر أمره بمحاكمة علي ، على أن يسمع بأذنه ما يدور في المحاكمة من وراء حجاب ، وقد تم الأمر في أسرع من البرق وشكلت لجنة المحاكمة برئاسة الوزير ، وحضر القاضيان السابقان في المحاكمة الأولى : أبو عمر محمد بن يوسف وأبو جعفر أحمد بن إسحاق البهلول .

افتتح الرئيس الجلسة ، وسيق علي بن عيسى إلى المحاكمة وبدأ الوزير فأسرع بإحضار رجل يدعى « ابن قليجه » وأذن له في الكلام فقال :

لقد أرسلني علي بن عيسى إلى القرامطة مبتدئاً ، فكاتبوه يلتمسون منه المساحي والطلق وعدة حوائج فأنفذها إليهم ، ومعي خطابه الذي بعث به في هذا الشأن ، ثم قرأ الخطاب فوُجد خالياً من تكفيرهم وسبهم كما ينبغي أن يكون في نظر ابن الفرات .

وشاء الرئيس أن يلخص الإتهام في نقط مركزة محدودة ، فصاح في وجه علي ، والمقتدر يسمع من وراء حجاب .

تقول إن القرامطة مسلمون والإجماع قد وقع على كفرهم ، فهم أهل ردة لا يصومون ولا يصلون ، وتبعث لهم الأدوات الحربية وهم أعداء الخلافة ومبعث الفساد والشقاق !

قال علي : أردت بذلك المصلحة وإعادتهم إلى الطاعة ، دون أن تراق الدماء .

قال الرئيس : ويحك لقد أقررت بما لو أقر به إمام لما وسع الناس طاعته ، فكيف يجوز لك التعاون مع أهل الفساد ؟ !

ثم التفت إلى القاضي أبي عمر فقال له : ما عندك في أمر علي ؟ فأحجم ولم ينطق بحرف . فاتجه إلى أبي جعفر وسأله ما عندك يا أحمد ابن إسحاق ؟ !

قال أحمد : لقد صح عندي أن علياً افتدى بكتابه إلى القرامطة ثلاثة آلاف رجل من المسلمين كانوا مستعبدين فرجعوا إلى أوطانهم أحراراً ، فإذا فعل إنسان ذلك على سبيل المغالطة للعدو ، فلا لوم عليه بل يستحق أطيب الثناء .

تجهم وجه ابن الفرات ، وسأل القاضي : ما تقول فيما أقر به علي من إسلام القرامطة وهم أهل طغيان .

قال القاضي : إنهم كاتبوه بحمد الله والصلاة على رسوله فلم يصح عنده كفرهم ، فهم لا ينازعون في الإسلام ولكن ينازعون في الإمامة فقط ، ومن نازع فيها فهو غير كافر عند الأئمة الأعلام

دهش الوزير من الرد المفحم ، ثم استأنف أسئلته فقال :

— ما رأيك في الأدوات الحربية التي أرسلها إلى الأعداء ، أ كان ينوي بذلك تقويتهم على الشغب والفساد ؟ !

— هو لم يعترف بذلك فلا تؤاخذه به .

— كيف نصدقه مع أن رسوله وثقته ابن قليجة قد قال إنه أرسل لهم المعدات !

— إذا قال رسوله ذلك فهو مدع وعليه البينة !

— كيف يكون مدعياً وهو ثقته الذي استأمنه على حمل الكتب والرسائل ؟

— إن علياً قد استوثق به في حمل الكتب ، فلا يقبل قوله في الأدوات الحربية بحال من الأحوال .

— أأنت وكيله حتى تحتج عنه أم أنت حاكم وقاض ؟

— لست وكيله ، ولكني أقول الحق كما قلته فيك يوم أراد حامد بن العباس أن يتهمك أمام الخليفة بما هو أعظم من هذه التهمة ، فهل كنت وكيلك حينذاك ؟

بهت الوزير ، وانكسر انكساراً طاطأ رأسه إلى الثرى ، وانتصر الحق مرة ثانية على يد أحمد بن إسحاق .

— ٤ —

وبعد فقد كان الورع والصلاح ديدن قضاة السلف الصالح في صدر الإسلام ، فكانوا يتحرزون ويدققون ، مقدرين عظم المسئولية وفداحة التبعة . ومهما قارنت هؤلاء الأتقياء بأعلام القضاء الحديث في الشرق والغرب ، فهم الراجحون الفائزون ، حيث كانوا يبتغون وجه الله وحده ، فأنزلهم منازل الصالحين ، وفازوا بأعظم الدرجات !

تيقنت أن لا دار من بعد عالج   تسر وأن لا خلة غير زينب

(الكفر الجديد)   محمد رجب البيومي

وتبين رب الخورنق إذ أشـ ... رف يوماً وللهدى تفكير
سره ما رأى وكثرة ما يمـ ... لك والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبه وقال فما غبـ ... طة حي إلى الممات يصير (١)

وقد أكثر العرب من ذكر الخورنق في أشعارهم وصار مضرب أمثالهم ولم يتعمدوا لوصفه وصفاً مسهباً . غير أن المؤرخ يستنتج من أقوالهم أنه كان طرفة من طرف البناء جامعاً بين العظمة وبهاء الزخرف وروعة الموضع (٢) . وجاء في كتاب « البرهان القاطع » مادة سنمار : إن سنمار البناء الرومي بنى الخورنق وأجاد في صنعه كل الإجادة ، حتى إن القصر الذي بناه كان يتلألأ ليلاً ونهاراً بالألوان المتنوعة نظير أبي قلمون ، فكان يظهر صباحاً أزرق وظهراً أبيض وعصراً أصفر . وفي ذلك خطاب شريح القاضي للضحاك بن قيس : يا أبا أمية أرأيت بناء أحسن من هذا ؟ قال : نعم السماء وما بناها (٣)

وفي الروايات أن بناء الخورنق دام ستين سنة فكان يبني سنمار السنتين والثلاث ، ويغيب الخمس سنين وأكثر من ذلك ، فيطلب فلا يوجد ؛ ثم يأتي فيحتج حتى فرغ من بنائه (٤) . ولا يخفى على القارئ المحقق ما في هذه الروايات من المبالغة القصصية ، وما عليها من مسحة الانتحال ؛ لأننا إذا دققنا النظر في زمان ملك النعمان نرى أنه حكم تسعاً وعشرين سنة وأربعة أشهر (٥) ، فكيف جاز أن تستغرق مدة بنائه ستين سنة مع أن ملك النعمان الذي أمر ببنائه لم يتجاوز الثلاثين بعد أن قتل سنمار وبقي في القصر مدة طويلة .

ومما كان يزيد هذا الجوسق بهاء وروعة موقعه الطبيعي الفتان ، فكان يشرف على النجف وما يليه من البساتين والنخل والجنان والأنهار . وكان البحر تجاهه ، وفيه الملاحون والنواسون والحوت ، وخلفه البر وفيه الضب والظبي ، ويقابل الفرات فيدور عليه على عاقول كالخندق (٦) ولهذا افتتن المؤرخون والشعراء بهذا القصر وهاموا في الإشادة بذكره (١) فقال المنخل اليشكري من قصيدة :

ولقد شربت من المدا ... مة بالصغير وبالكبير
فإذا سكرت فإنني ... رب الخورنق والسدير
وإذا صحوت فإنني ... رب الشويهة والبعير (٢)

وقال الأسود بن يعفر النهشلي :

ماذا أؤمل بعد آل محرق ... تركوا منازلهم وبعد إياد
أهل الخورنق والسدير وبارق ... والقصر ذي الشرفات من سنداد (٣)

وقال المتلمس للمحرق عمرو بن هند مضرط الحجارة :

ألك السدير وبارق ... ومرابض ولك الخورنق (٤)

وقال ابن كناسة :

الآن حين تزين الظاهر ... ميثاؤه ورائه القفر
بسط الربيع بها الرياض كما ... بسطت قطوع اليمنة الحمر
وجرى الفرات على مياسرها ... وجرى على أيمانها الزهر
وبدا الخورنق في مطالعها ... فرداً يلوح كأنه الفجر (٥)

وقال سلامة بن جندل :

ألا هل أتى أبناءها أهل مأرب
كما قد أتى أهل النقا والخورنق (٦)

وقال الأعشى :

ويجبى إليه السيلحون ودونها
صريفون في أنهارها والخورنق (٧)

وقال الثرواني :

يا دير حنة عند القائم الساقي
إلى الخورنق من دير ابن براق (٨) —

وقال الثرواني أيضاً يصف دير مارت مريم :

بمارت مريم الكبرى ... وظل فنائها فقف

(١) تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ١٧٠ . ومعجم البلدان ج٣ ص ٤٨٤
(٢) الحيرة ص ١٩ — ٢٠
(٣) معجم البلدان مادة خورنق ج ٣ ص ٤٨٥
(٤) معجم البلدان مادة خورنق والعرب وأطوارهم ج ١ ص ١٢
(٥) الأغاني ج ٢ ص ٢٦
(٦) حمزة الأصفهاني ص ٦٨

(١) الحيرة ص ٢١
(٢) و (٣) العرب وأطوارهم ج ١ ص ١٣
(٤) شعر النصرانية ص ٤٨١
(٥) الأغاني ج ١٢ ص ١٠٨
(٦) شعراء النصرانية ص ٤٩١
(٧) تاج العروس ج ٦ ص ٣٣٢ ، ولسان العرب ج ١١ ص ٣٦٦
(٨) كتاب الحيرة ليوسف رزق الله غنيمة ص ٤٤

فقصر أبي الخصيب المشـ — رف الموفي على النجف
فأكناف الخورنق والسـ — دير ملاعب السلف
إلى النخل المكمم والحـ — ـمائم فوقه الهتف(١)

وقال ابن المولى :

مباركة أرض المذيب وقد بدا — قصر به للآتين الخورنق(٢)

وقد بقي الخورنق إلى عهد الفتح الإسلامي حين دالت الحيرة بدخول القائد خالد بن الوليد في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ونزوله بالخورنق(٣) .

وقال في ذلك عبد المسيح بن بقيلة :

أبعد المنذرين أرى سواماً — تروّح بالخورنق والسدير(٤)
تحاماه فوارس كل حي — مخافة ضيغم عالي الزئير(٥)

وأنشد علي بن محمد العلوي الكوفي الحماني :

سقياً لمنزلة وطيب — بين الخورنق والكثيب
بمدافع الجرعات من — أكناف قصر أبي الخصيب
دار تخيرها الملو — ك فهتكت رأي اللبيب(٦)

قال الحماني أيضاً :

فيا أسفي على النجف المعري — وأودية منورة الأقاحي
وما بسط الخورنق من رياض — مفجرة بأفنية فساح(٧)

وقال أيضاً :

كم وقفة لك بالخورنق — ما توازي بالمواقف
بين الغدير إلى السد — ير إلى ديارات الأساقف(٨)

وقد بقي هذا القصر عامراً — كما ترى من أقوال الشعراء فيه — بعد الفتح الإسلامي وتخطيط الكوفة زمناً (٩) ؛ وإن كلا من ولاة الكوفة أحدث فيه شيئاً من الأبنية ومنهم الضحاك ابن قيس بنى فيه مواضع وبيضه وتفقده (١) . وقد سكنه الأمراء العباسيون ، وبقي قائماً إلى القرن السابع الهجري ، ومفاد ذلك ما جاء في مراصد الاطلاع (١) : والمعروف أنه — أي الخورنق — القصر القائم إلى الآن بالكوفة بظاهرة الحيرة . بل ظل عامراً إلى القرن الثامن الهجري وذلك حين ذكره محمد بن بطوطة في رحلته المشهورة إذ قال : (٢) ولما تحصلت لنا زيارة أمير المؤمنين علي عليه السلام سافر الركب إلى بغداد وسافرت إلى البصرة صحبة رفقة كبيرة من عرب خفاجة وخرجنا من مشهد علي عليه السلام فنزلنا الخورنق موضع سكنى النعمان بن المنذر وآبائه من ملوك بني ماء السماء وبه عمارة وبقايا قباب ضخمة في فضاء فسيح على نهر يخرج من الفرات ... اما ماجاء في الملة الإسلامية مادة خورنق من أنه أصبح خراباً في القرن الرابع عشر للميلاد فليس بصحيح لما قدمناه من قول ابن بطوطة والحنبلي صاحب مراصد الأطلاع.

وفي أواخر القرن الثالث عشر الهجري أرادت الحكومة العثمانية إنشاء سراي وثكنة وأنبار (مخزن) لواردات الخزينة الميرية فأوعزت ولاية بغداد إلى حكومة أبي صخير أن تشرع بهذا العمل فلم يكن من تفكير قائمقام أبي صخير العثماني في إنشاء هذه البنايات إلا القضاء على قصر الخورنق هذا الأثر العربي القديم فأمر بهدم ما كان ماثلا من جدرانه وقبابه ونقل تلك الأحجار والأنقاض إلى أبي صخير وبنوا بها المواقع التي أشرنا إليها ولازالت قائمة إلى اليوم . وحكى بعض الشيوخ أنهم وجدوا أثناء الحفريات في إحدى غرف الخورنق المطلة على بحيرة النجف عصاً من الخشب الأسود وعليها نقوش وزخرف ، ولما أخبر القائمقام والي بغداد بذلك أمره بإرسالها إلى بغداد ، ومن ثم أرسلت إلى الأستانة بطلب من السلطان عبد الحميد(٣) .

وقد زرت موقع الخورنق منذ أيام معدودة لقربه من مدينتي النجف ، فوجدت آثاره ظاهرة بالقرب من نهر السدير أو ما يسمى اليوم بنهر كرى سعد ، ويقع جنوبي النهر المذكور بمسافة قدرها (٣٠٠) متراً تقريباً ، ويبعد من بدء آثار الكوفة الحادثة

(١) كتاب الحيرة ص ٤٦
(٢) كتاب الأغاني ج ٣ ص ٢٨٧
(٣) خالد بن الوليد للسيد طه الهاشمي ص ١٢٧
(٤) أمالي السيد المرتضى ج ١ ص ١٨١
(٥) معجم البلدان ج ٣ ص ٤٨٤
(٦) معجم البلدان مادة خورنق
(٧) معجم البلدان مادة نجف
(٨) معجم البلدان مادة خورنق
(٩) كتاب الحيرة ص ٢٣
(١٠) معجم البلدان مادة خورنق

(١١) ص ١٠٨ طبعة إيران
(٢) الجزء الأول ص ١١٣
(٣) هذا ما أخبرني به الأستاذ البحاثة الشيخ محمد علي اليعقوبي نقلا من كتاب تاريخ المهمة للسيد حسين البراق النجفي وهو مخطوط موجود في بلد المهمة عند رجل تاجر يسمى بالحاج محمود البزاز

على عهد الإسلام بمسافة تقدرها ستة كيلو مترات ، ومن بعد آثار مدينة الحيرة بمسافة قدرها أربعة كيلومترات ، وعن النجف (١٢) كيلومتراً أيضاً . وتقع آثاره على أرض رملية جافة مرتفعة ومتصلة بسلسلة مرتفعات طف الحيرة ، ويبعد عن فضاء أبي صخير ستة كيلو مترات تقريباً من جهة الغرب ، كما يبعد عن آثار مدينة الحيرة القديمة (كنيرة) بمسافة تقدر بأربعة كيلومترات تقريباً ، ويشرف على أرض منخفضة من أراضي الطف انخفاضاً يقدر بعشرين متراً تقريباً من جهة الجنوب الشرقي ، ويطل على مناظر جميلة من الرياض الرحبة والبساتين والأنهر . وإذا توجهت إليه من جهة الجنوب تراه واقعاً على قمة جبل مرتفع وهو يتصل من جهاته الثلاث الأخرى بأراض سهلة من أراضي كوفان الرملية ، فضاؤه رحب وهواؤه طلق ، مبتعداً عن آثار مباني المدن شأن قصور الملوك ، أما مساحة آثار هذا القصر فتقدر بعشرة آلاف متر مربع تقريباً بما في ذلك آثار المباني المندرسة الملحقة به والمرافق المتصلة فيه(١) .

(النجف — العراق) كاظم المظفر

(١) من مقال لمعالي الحاج عبد المحسن شلاش تحت عنوان « الكوفة ويوم الحلم » وقد نشر في مجلة الاعتدال بالعدد السابع من سنتها الثانية ص ٢٩٤ — ٢٩٥

هـــروب !.

للآنسة فدوى عبد الفتاح طوقان

كرهتِ حقائق دنيا الورى   وهمت بأوهام دنيا الخيال
فما يتصبّاك إلاّ الرؤى   وسحر الطيوف وسحر الظلال
متى يا ابنة الوهم تستيقظين ، متى يتجلى عنك هذا الخبال
أنيقي ، كفاك ، لقد طال مسراك عطشى وراء سراب الرمال

تعيشين في ذهلة الحالمين   بعيداً بآفاق كون عجيب !
ويعلو روحك في قيده   حنين الشوق وشجو الغريب
ومن فلك الأرض كم تطلقين   خيالك فوق الفضاء الرحيب
يجوز مدارَ النجوم ويمعن   في اللانهايات ، عبر الغيوب

فيق ، أين تمضين ؟ فيم اندفاعك ؟ من ذا ترين بأفق الشرودْ
وما هدفه ؟ رجفةٌ في كيانك مما تشدّ عليه القيود
تمرّد روحك في سجنه   يريد يحطم تلك السدود
ليسمو طليقاً خفيف الجناح   وراء الزمان ، وراء الحدود !

فيق ، أين تمضين ؟ من ذا ترين هنالك عبر الفضاء المقايم
وماذا يشوقك ، أم من ينادى ويوى من شرفات السديم ؟!
تمرّ أمامك هذى الحياة   مواكبَ مختلفاتِ الرسوم
فتلوين وجهك لا تنظرين   وفي مقلتيك ظلال الوجوم

ألا كم تهيمين في عالم   تناءى بعيداً بعيداً مداه
وفي عمق روحك شوق ملح   جموح لظاه ، عنيف ظماه !
تراك هنالك تستلهمين السموات سر الردى والحياة ؟!
تراك هنالك تستطلعين   خفايا الوجود وكنه الإله ؟!

ألست من الأرض ، فيم انعطافك ؟ فيم انجذابك نحو الأعالى !
أأنكرتِ في الأرض هول الفناء ، وظلم القضاء ، وجور الليالى ؟
تراكِ افتقدت جمال العدالة   فيها فهمت بأفق الخيال
عبرة والهاً تنشدين الحقيقة في غامضات المجالى !

أراعك في الأرض سيل الدماء وبطش القوى والرزايا الكبر ؟
أراعك فيها شقاء الحياة   أراعك فيها صراع البشر
أمن صرخات القلوب الدوامى   تمض عليها نيوب القدر
تلوذين في لهف ضارع   بكون تسامى نقي الصور ؟!

بلى ، هي هذى المآسي الكبار تعذب فيك الشعور الرقيق
فتنأين عن واقع راعب   إلى عالم عبقرى سحيق ..
ويمضي خيالك مستغرقاً   هناك بنهوعه ما يفيق .
هو الوهم ، عالمك الشاعرى ، المثالى ، مسرى الخيال الطليق
توحدت فيه بأشواقك الحيارى ... بهذا الحنين العميق !

(نابلس) فدوى عبد الفتاح طوقان

تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوى

لحظات فى سجن أبى العلاء :

... ...

جلست وصاحبى نتجاذب أطراف الحديث فى نواحى الحياة المختلفة من بقاء الجنس والنزوع إلى البقاء وآراء بعض الفلاسفة فى الحياة ، وساقنا الحديث إلى أبى العلاء ، فذكرت لصاحبى قوله فى بقاء الجنس :

فليت وليداً مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمه النفساء !

واسترسلنا فى الحديث فذكرت قوله فى النزوع إلى عدم البقاء :

تواصل حبل النسل ما بين آدم وبينى ولم يوصل بلامى باء

وأخيراً تطرقنا إلى رأيه فى الحياة ، وحبه فى عدم البقاء ، وتشاؤمه من الدنيا ، فعرضت لقوله :

دعانى بالبقاء أخو وداد رويدك إنما تدعو علىّ

فما كان البقاء لى اختياراً ولكن الأمر موكول إلىّ

فقال صاحبى : ما هى أهم سمة له ؟ فقلت : أعمى ! فارتسمت على وجهه علامة استنكار لهذا الرأى ، وكأنه لم يرتح له ، ولم يطمئن إليه ... ولذا جئت أسألك ، وقد سبقنى إلى هذا السؤال شاعرنا الرصافى حينما خاطب الدكتور طه حسين قائلا : « لو لم يكن أبو العلاء أعمى ، فماذا يكون رأيه فى الحياة عند ذاك » ؟ !

دلك الله إلى الطريق السوى لطلاب المعرفة الحقة ، وجعلك هادياً لمن يريد الهداية ، وأدامك ما دمت مجيباً لكل سائل .

(ف . ع)

يوسفية — العراق

سؤال الأديب العراقى الفاضل سؤال يجىء فى إبانه ... لقد قضيت لحظات فى سجن أبى العلاء قبل أن ألتقى هذه الرسالة بأيام ، وليس أحب إلىّ من أن أعود إلى أبى العلاء من حين إلى حين لأرجع إلى كثير مما قال ، ولأراجع كثيراً مما قيل فيه ، سواء أكانت المراجعة لأقوال القدامى ، أم كانت لأقوال المحدثين .

إن شخصية أبى العلاء لتعد فى رأيى أهم شخصية قلقة فى الفكر العربى كله ؛ ومن هنا يلذ لى أن أعود إليه ، كما تلذ لى العودة إلى الشخصيتين الأخريين القلقتين فى الفكر الغربى ، وأعنى بهما بودلير وليوباردى !

إن الشخصيات القلقة تستهوينى دائماً ؛ تستهوينى لأنها مصدر خصب من مصادر الدراسة النفسية ، تلك التى تحيل الشخصية الإنسانية غرفة تشريح يتكشف بين جدرانها وتحت لمسات المبضع مكامن الداء ومنابع الانحراف ... إن هؤلاء الأعلام الثلاثة — وإن افترقوا فى الوطن والدين واللغة — إلا أنهم يلتقون فى ميدان واحد توجههم فيه نزعة نفسية واحدة : هى القلق ... والقلق — كما يقول صديق الأستاذ راجى الراعى — هو أبرز صفحة فى كتاب العبقرية !

لو قال الباحثون عن أبى العلاء إنه إنسان قلق لعبروا عن الواقع أدق التعبير ، ولأحاطوا بكل جانب من جوانب شخصيته بهذه الكلمة الواحدة ، ولكنهم ركزوا كل عنايتهم فى جانب واحد انتهوا منه إلى حكم عام ما لبث أن استقر فى الأذهان واطمأنت إليه النفوس ؛ هذا الحكم العام محوره التشاؤم فى شخصية الرجل وفى فلسفته على حد سواء !

من الخطأ — فى رأيى — أن ينسب الباحثون أبا العلاء إلى نزعة نفسية بعينها ليتفرد بها وليقف عندها لا يكاد يتعداها إلى غيرها من النزعات ؛ ذلك لأن أبا العلاء قد مال إلى التفاؤل كما مال إلى التشاؤم ، ونصح بالإقبال على الحياة كما نصح بالإعراض عن الحياة ، وآمن بالبعث كما أنكر إيمانه بهذا البعث ، وأوصى بالزهد فى نعيم الدنيا كما أوصى بالإغراق فى هذا النعيم ، ونادى بفكرة الزواج والنسل كما نادى بنبذ هذه الفكرة مقدماً من نفسه مثالا لهذا الحرمان !

أبو العلاء إذن لم تكن له « لافتة » واحدة « يعلن » فيها عن رأى واحد تتميز به شخصيته الفلسفية والإنسانية ، ولكنه كان أشبه بالتاجر الذى يعلن كل يوم عن « صنف » جديد من أصناف « بضاعته » عقب وروده بلحظات !

نعم ، فلم يكن أبو العلاء إلا تاجر آراء على التحقيق ... آراء

فلسفية مختلفة متناقضة لا تستطيع أن تصدق رأياً منها وتكذب الآخر، فإما أن تقبلها جميعاً، وإما أن ترفضها جميعاً، أما أن تقف منها عند رأى بعينه لتخرج منه بلافتة كبرى هى «التشاؤم» فذلك أمر تثور عليه فلسفة أبى العلاء كل الثورة، لأنها فلسفة الإثبات هنا وفلسفة الإنكار هناك! إن وجه الشبه بين تاجر البضائع وتاجر الآراء هو أنك لا تستطيع أن تنسب الأول إلى صنف واحد مما يقدمه إلى الشارين، ولا أن تنسب الثانى إلى رأى واحد مما يقدمه إلى المريدين؛ وإنما تستطيع أن تنسب الأول إلى أصناف بضائعه كلها فتقول عنه مثلا إنه يبيع «البقالة»، وأن تنسب الثانى إلى مجموعة آرائه كلها فتقول عنه مثلا إنه يبيع «القلق»! وهكذا كان أبو العلاء فى حقيقة شخصيته وحقيقة فلسفته... تاجر آراء... فيها التشاؤم وفيها التفاؤل، وفيها الإلحاد وفيها الإيمان، وفيها الإقبال وفيها الإعراض، وفيها الهدم وفيها البناء، وكل تلك السطور المتناقضة يمكنك أن تضمها تحت عنوان كبير مكون من كلمة واحدة هى «القلق»!

هذا القلق هو الظاهرة الكبرى فى شخصية أبى العلاء؛ فإذا أراد الدارسون أن يقتفوا آثاره ليصلوا إلى أسبابه، فليس أمامهم غير حقيقة واحدة، هى أن الذبذبة الفكرية ما هى إلا انعكاس مباشر للذبذبة النفسية... وهذه هى المرحلة الثانية التى تدفع بهم إلى الباب الأخير ليفتح على مصراعيه!

ولنا بعد ذلك أن نسأل: ما هو المفتاح الأصيل الذى نلج به هذا الباب لنضع أيدينا على سر تلك الذبذبة التى وجهت العقلية العلائية هذه الوجهة التى لا تطمئن إلى رأى ولا تستقر على حال؟ أهو العمى؟ أهو تلك الآفة التى أصيب بها وحرمته نعمة الضياء وردد وقعها على نفسه فى كثير من شعره؟!

إن العمى قد يبعث على الألم، وقد يدفع إلى الشكوى، وقد يحض على التشاؤم وكراهية الحياة، ولكنه إذا سبب هذا كله لأبى العلاء، فإن منطق الشعور لا يرتضى أن يخرج أبو العلا من دائرة الألم والشكوى والتشاؤم، فما بال الرجل قد خرج من هذه الدائرة وتذبذب بين الأمر ونقيضه، وانحرف مرة نحو اليمين ومرة أخرى نحو الشمال؟!

ونعرض للمشكلة من زاوية أخرى فنقول: إذا مال الباحثون إلى الأخذ بهذا التفسير الذى يلتمس فى الآفة الجسمية سر النظرة إلى الحياة فهو تفسير غير مقبول... فما أكثر المكفوفين الذين امتلأت حياتهم بالنور، وامتلأت نفوسهم بالرضا، ونظروا إلى الدنيا من خلال منظار أبيض يحيل الدمعة فى عيونهم فرحة وابتسامة، وما أكثر المبصرين الذين نظروا إلى الدنيا من خلال منظار أسود فتمنوا كل أيام الحياة وهم يتخبطون فى الظلام!

ليست الآفة الجسمية إذن هى مصدر هذا القلق الذى أقض مضاجع الفكر فى شخصية أبى العلاء، ولكنه فيما أعتقد شىء آخر تفسر على ضوئه المشكلة دون أن تحمل النفسية العلائية ما لا تطيق... إنك لو رحت تبحث عن سر القلق والاطمئنان فى كل شخصية إنسانية لما وجدته ممثلا إلا فى كلمتين: هما فراغ الحياة، وامتلاء الحياة!

نعم، وهذا هو المفتاح... المفتاح النفسى البسيط الذى لا غموض فيه ولا تعقيد... لو فرغت الحياة عند المبصر وغير المبصر لبدت فى رأى الشعور وهى مأساة تحفل باللوعة والألم والعذاب، ولبدا الفكر الثابت المستقر وهو نهب لزوبعة الرياح والأعاصير!

ولو امتلأت الحياة عند المبصر وغير المبصر لأصبحت فى رأى الشعور أملا كبيراً تتبخر تحت أشعته المتوهجة قطرات الهم والأسى وتفر أشباح الحرمان!

الفراغ فى حياة أبى العلاء ولا شىء غير الفراغ، وعلى هديه نلتمس العلة الأصيلة لتلك الذبذبة النفسية ممثلة فى هذه الذبذبة الفكرية!

ولنا بعد ذلك أن نسأل: أى لون من ألوان الفراغ كان يشكو أبو العلاء؟

إنها ثلاثة ألوان: فراغ النفس، وفراغ القلب، وفراغ الجسد... ولك أن تردها جميعاً إلى الحرمان؛ فنفس أبى العلاء كانت تشكو الحرمان من العطف، وقلب أبى العلاء كان يشكو الحرمان من العاطفة، وجسد أبى العلاء كان يشكو الحرمان من المرأة! وقف طويلا عند هذا الحرمان الأخير، فهو مصدر الحرمان كله، ومركز الفراغ كله، وعلة هذا القلق الذى وجه أبا العلاء ألف وجهة، وحيره بين ألف رأى وعقيدة، وقذف بعقله إلى

ألف درب من دروب الفكر ، حيث يتجلى التناقض والتضارب والاختلاف !

هذا الجدب الماحق فى القلب الإنسانى ، وهذا الكبت الطويل العنيف للنزوة الجنسية ، هما فى رأيى — ولا شىء غيرهما — مركبا النقص الخطيران فى شخصية أبى العلاء ، ولا حاجة بنا إلى الحديث عن مركب النقص وأثره فى توجيه العقول والأفكار !

لقد سألنى الأديب العراقى الفاضل : لو لم يكن أبو العلاء أعمى فماذا يكون رأيه فى الحياة عند ذاك ؟

ترى أيحتاج بعد هذه الدراسة النفسية إلى جواب ؟ !

بعض الرسائل من حقيبة البريد :

أشكر للأديبة الفاضلة التى كتبت إلىّ مهنئة بشهر الصوم ، أشكر لها هذه العاطفة النبيلة التى حملتها إلىّ سطور وكلمات ، أما عن سؤالها إذا كنت مسلماً أو مسيحياً فأنا مسلم والحمد لله . ولو رجعت إلى بعض أعداد « الرسالة » لتأكدت من صدق هذه الحقيقة ! أما عن قضيتها الأدبية فأرجو أن تثق كل الثقة بأنى معنى بها كل العناية ، وسأبذل كل ما فى وسعى لأقنع « صاحب الأمر » بعدالة هذه القضية . وأنتقل إلى الرسالة الثانية التى تلقيتها منذ أيام من « دمشق » حيث يقول مرسلها الأديب الفاضل عزة عثمان : « أود أن أتقدم بواجب الشكر وعظيم الامتنان ، لما أفدته من أبحاثك حول (الفن والحياة) ... لقد تفهمت تماماً — على الرغم مما قاله الدكتور طه حسين — كل معنى قصدت إليه ، وقد توارد على فكرى وأنا أقرأ ردك على كلتى الأستاذين طه والحكيم ، مايقول الأستاذ راجى الراعى : « جبلة هى الوجه المتجهمة المائجة وأجمل منها الصخرة التى تردها » !

يا صديقى ، أشكر لك هذه التحية الكريمة وأقول لك رداً على الأسئلة التى وجهتها إلىّ : إن الترجمة القديمة خير من الترجمة الجديدة ، خير منها من جميع الوجوه التى عرضت لها فى رسالتك ، وأكتفى بهذا القدر من الإجابة دون التعرض للأسماء حتى لا يحرج بعض الناس ! أما عن رجائك فى أن أترجم لقراء الرسالة — ولو مرة فى كل شهرين — فصلاً أو قصيدة أو قصة أختارها مما بين يدى من نتاج كتاب الغرب ، فإنى أجيبك على هذا الرجاء بأنى لا أميل كثيراً إلى الترجمة لأنها ميدان لا تظهر فيه الشخصية الفكرية كما تحب أن تظهر ، ولعلك تلمس من كتاباتى أنى إذا قرأت فصلاً من الفصول فى الأدب الغربى أو الأدب العربى حرصت كل الحرص على أن أقف منه موقف العارض والمحلل والناقد ، وأظنك توافقنى على أن الترجمة لا تحقق لى شيئاً من هذا الشغف الذى فطرت عليه ! ومع ذلك فأنا أرجو أن أحقق هذه الرغبة يوماً لأنها رغبة صديق .

ولا بد من الشكر مرة ثالثة لصاحب الرسالة الثالثة ، وهو الأديب الفاضل محمد دوبلة من « شرق الأردن » ... يا صديقى إنى أرحب بصداقتك وبكل صداقة يعطرها الخلق والوفاء ، وإذا كانت « من الأعماق » و « من وراء الأبد » قد ربطتا بينى وبين كثير من القراء برباط المودة الروحية المتسامية فكم أود أن أكثر من هذا اللون الوجدانى لتزداد عدد الأصدقاء المتذوقين .

أما الرسالة الرابعة فهى من الأديب الفاضل محمد تيم بمصر الجديدة يقول الأديب الفاضل : « أرسلت إليكم كتاباً طلبت فيه شرح الخطوط الفنية التى ترسم على ضوئها إنتاج الأستاذ سهيل إدريس القصاص اللبنانى فى العدد (٨٣٤) من « الرسالة » ، واليوم أعود فأطالبكم ثانية بهذا الشرح ، وأرجو أن يكون وافياً موضحاً بالأمثلة من كتاب القصة عندنا وفى الغرب » . إن ردى على هذه الرغبة هو أن بين يدى كثيراً من كتب الأدباء فى انتظار النقد وكثيراً من أسئلة القراء فى انتظار الإجابة ، فإذا أرجأت التعقيب بعض الوقت على هذا الموضوع فأرجو المعذرة !

كتاب جديد للأستاذ أحمد الصاوى محمد :

لست أدرى كيف أشكر للصديق الأثير الأستاذ أحمد الصاوى محمد هذه التحية الروحية الخالصة التى غمرنى بفيضها حين أهدى إلىّ كتابه الجديد « بنات » ... إن الذين يعرفون الصاوى كما أعرفه ، يعرفون فيه إنساناً يضع قلبه على يديه ليقدمه إلى الناس فى غلاف من سحر العاطفة ، ومن هنا كان الصاوى فى أكثر كتاباته دقات قلب تسبق وثبات قلم ، وبخاصة فى هذا الكتاب الجديد الذى كنت أود أن أقدمه إلى القراء فى هذا العدد لولا ضيق النطاق ، فإلى العدد القادم حيث أضعه على مشرحة النقد والتحليل .

أنور المعداوى

الأدب والفن في أسبوع

للأستاذ عباس خضر

ذكريات منسية:

جاءت ذكريات ثلاثة من أعلام النهضة الأدبية والفكرية بمصر في الأسبوع الماضي ، وهم الشيخ محمد عبده ، والمنفلوطي ، وحافظ ابراهيم ، فماذا لقيت هذه الذكريات من اهتمام ؟

أما الشيخ محمد عبده أستاذ الأساتذة والرائد الأول لإصلاح الأزهر ، ونافض الغبار عن الفكر الإسلامي في العصر الحديث ، فقد اقتصر إحياء ذكراه في حديث عنه للدكتور عثمان أمين بالإذاعة يوم الذكرى الموافق ١١ يولية الحالي ، وكذلك السيد مصطفى لطفي المنفلوطي الكاتب الإنساني الذي أحبه كل قارئ وقرأه كل شادٍ في الأدب ، إذ كان كل نصيبه من الذكرى حديث عنه للأستاذ محمد خلف الله أحمد يوم ذكراه الموافق ١٢ يولية الحالي ، أما حافظ ابراهيم شاعر النيل الذي ظل حياته يشجي بالتعبير من أوجاع مصر ، فقد نسيته مصر وتجاهلت ذكراه الواقعة ٢١ يولية الحاضر ، وأنكرته الإذاعة كأنها لا تعلم أنه كان في مصر شاعر اسمه حافظ ابراهيم !

وقد اقتربت ذكرى أمير الشعراء أحمد شوقي بك ، ولا بد أن الإذاعة ستستعد لإحيائها كما تفعل كل عام بذلك البرنامج الحافل الذي يتلخص في إذاعة فصل من مسرحية مجنون ليلى ، وإدارة (اسطوانة) يا جارة الوادي ، ويجنه علم النزل !

منذ شهور احتفلت سفارة الباكستان في القاهرة بذكرى شاعرها الكبير محمد إقبال ، وكان ذلك فرصاً أو مشاركة للمهرجان الكبير الذي أقيم في الباكستان للشاعر العظيم ، ومن نحو شهرين تألفت لجنة في مصر للاشتراك في إحياء ذكرى الموسيقى العالمي شوبان ، واجتمعت هذه اللجنة في وزارة الخارجية ، ووضعت برنامج الاحتفال الذي سيكون في سبتمبر القادم ، ومنذ قليل تلقت وزارة المعارف من هيئة اليونسكو كتاباً يتضمن أنها ستحتفل بذكرى الشاعر الألماني جيته وتدعو مصر إلى الاشتراك في إحياء ذكراه ، ونشرت الصحف أن الوزارة أخذت في العمل على تأليف لجنة من الأدباء والفنانين المصريين للاحتفال في مصر بذكرى جيته .

ولو ذهبنا نسوق الأمثلة لاهتمام الأمم والدول بذكريات أعلامها من الأدباء والفنانين والمفكرين لطال المقام ، كما يطول بسياق الأمثلة لجحود مصر ونسيان الراحلين عنها بعد أن فنوا بأداء رسالاتهم فيها ، والعجيب أن تهتم بمشاركة غيرها في الاحتفال للذكريات وهي لا تهتم بذكريات أبنائها !

وجدير بالغير ألا يهتم بهم ما دامت هي غافلة عنهم !

والتقصير في ذلك يرجع إلى الجهات الحكومية وإلى الهيئات الأهلية ، أذكر من الأولى وزارتي المعارف والشؤون الاجتماعية والإذاعة ، ويختص الأزهر بالتقصير في جانب الشيخ محمد عبده !

وما أكثر الجمعيات الأدبية والثقافية في مصر ، وما أقل الأدب والثقافة فيها ! وإن أليق شيء بها أن تقوم بإحياء ذكريات الأدباء والمفكرين .

ولا ينبغي أن يهمل ذكر الصحافة في هذا التقصير ، فإنه لا تعني كلمة هنا ونتفة هناك ، ولا شيء هنا وهناك ...

وكذلك الكتاب الذين عاصروا وعاشروا الشخصيات التي نسيت ذكرياتهم ، وهم أولى الناس بأن يذكروها .

واعتقد أن أولئك الراحلين ليسوا في حاجة إلى تلك الحفاوات والاحتفالات ، إنما تنفع الذكرى الأحياء بما يجلى عليهم في إحيائها من آثار أدبية ومثل عالية في حياة من نحيا ذكرياتهم ، ففي للجيل الحاضر معرض رائع من صور الإنسانية الراقية في حياة الماضين وما يلابسها من آداب وعلوم وفنون ... فذكروا الأحياء بذكرى الأموات !

تعليم العربية في جنوب السودان:

رددت الصحف أخيراً أنباء خلاف وقع في السودان بين وزير المعارف هناك السيد عبد الرحمن علي طه وبين

السلطات البريطانية على دراسة اللغة العربية في مدارس السودان الجنوبي ، وقالت الأنباء إن السيد عبد الرحمن قام برحلة إلى الجنوب تفقد فيها حالة التعليم هناك ، ولما عاد إلى الخرطوم رأى ضرورة اعتبار اللغة العربية لغة أساسية في مدارس الجنوب وهذا النبأ يدل على حقيقة تدعو إلى الأسف ، وهي أن أهل السودان الجنوبي يعلّم من يعلم منهم بغير اللغة العربية وبالإنجليزية طبعاً .. ولكن الإنجليز لا يشاركوننا هذا الأسف بطبيعة الحال ، بل هم يدهشون لاجتراء وزير للمعارف السوداني على الاهتمام باللغة العربية واتخاذها مادة أساسية بتلك المدارس ، ولا بد أن يعارضوا في ذلك ويلتمسوا لمعارضتهم أسباباً تحمل (ماركة) اللورد الإنجليزي الشهورة ... قالوا : إن هذه خطوة سابقة لأوانها ! واعتلوا بعدم وجود مدرسين للغة العربية ملمين باللغة المحلية الجنوبية .. ومعنى هذا وذاك باللغة العربية الفصيحة ، أنه يجب ألا يتعلم السودان الجنوبي إلا الإنجليزية ولا تفتح أبوابه إلا للإرساليات المسيحية التبشيرية ، أي يجنب كل ما يربطه بالشمال من تلك الروابط التي تقلق البال البريطاني

ولعلك تعلم أن في (ملكال) من جنوب السودان مدرسة ابتدائية مصرية أنشأتها وزارة المعارف المصرية منذ سنوات هناك حيث توجد إدارة الري المصري ، وأن هذه المدرسة يعلم فيها معلمون مصريون أبناء الجنوب باللغة العربية ، ويمتحن تلاميذها في امتحان الشهادة الابتدائية المصرية ، وقد نجحت جهود هذه المدرسة نجاحاً ملحوظاً. فهل المعلمون المصريون يفهمون اللغة المحلية في جنوب السودان أكثر مما يفهمها معلمو شمال السودان ؟

ثم كيف توافر معلمو اللغة الإنجليزية الذين يعرفون لغة أهل الجنوب دون أن يتوافر مثلهم معلمون للغة العربية ؟ إذا كان معلمو الإنجليزية من السودانيين الشماليين فحكمهم حكم من يعلمون اللغة العربية من مواطنيهم ، وإن كانوا من الإنجليز فما أحسبهم يدعون أن هؤلاء هم الذين أوتوا القدرة على فهم لغة الجنوب .

إن ما يبديه البريطانيون في السودان بهذا الصدد إنما هو تعلات يقصد بها الوقوف في وجه الثقافة المصرية خاصة ووجه

كشكول الأسبوع

□ سبق أن أشرنا إلى موافقة مجلس كلية الآداب على تعيين الأستاذ عبد الوهاب حمودة أستاذاً لكرسي شوقي . ونضيف الآن إلى ذلك أن المذكرة المعدة لهذا الغرض تقضي أن يكون ذلك ترقية للأستاذ على أن تسند الوراسة نفسها إلى أستاذ كبير غير متفرغ قد يختار من الأساتذة الذين أحيلوا إلى المعاش . وقد رفع الموضوع إلى مجلس الجامعة .

□ الصديق الكريم الأستاذ محمد سعيد العريان أديب مرزأ ، وآخر ما حدث له أن سطا بعض اللصوص على داره فسرقوا ما يقدر بنحو مائتي جنيه . وقد رفع هذا الحادث رؤوس الأدباء إذ أثبت أن في بيوتهم ما يطمع السارقين ... لا أخلى الله بيت الأستاذ مما يسرق ، على ألا يسرق .

□ استقر الرأي في مجمع فؤاد الأول للغة العربية على إخراج معجم فيشر ، وهو المعجم الذي كان يشرف عليه في المجمع الدكتور فيشر المستشرق الألماني ، وانقطع العمل فيه بانقطاعه عن مصر في خلال الحرب حتى توفي أخيراً . وتقوم فكرة هذا المعجم على بيان معاني الكلمات في تراكيبها المأثورة . وقد شكلت لجنة من بعض موظفي المجمع لمراجعة ما خلفه فيشر من قصاصات وأوراق خاصة بالمعجم . وتتجه الرغبة إلى أن يتولى إعداده للطبع أحد المستشرقين الذين اشتركوا مع فيشر في هذا العمل .

□ جاء من باريس أن مدير جامعة باريس أقام مأدبة غداء تكريماً للدكتور طه حسين بك حضرها جماعة من رجال الفكر في فرنسا ، كما حضرها سفير مصر في باريس الذي أعرب عن اغتباطه بما سمع من تنويه المثقفين الفرنسيين بمواهب الكاتب المصري الكبير وإعجابهم بمؤلفاته التي ترجم كثير منها إلى اللغة الفرنسية .

□ وجاء من باريس أيضاً أن الأب جومييه عضو المعهد الفرنسي بالقاهرة ألقى محاضرة عن مصر بين فيها خطأ السائحين في قصر اهتمامهم على الآثار الفرعونية ، فقد تعاقبت على مصر حضارات أخرى كحضارة البطالسة والحضارة الإسلامية ، وخلفت فيها آثاراً جديرة بالاهتمام ؛ وكذلك ينبغي الوقوف على مظاهر التقدم الحديث في مصر .

□ يهتم الفنيون في وزارة المعارف بمعرض (مصر — فرنسا) الذي يفتح في ٢٦ سبتمبر القادم بباريس ، وذلك من حيث اشتراك مصر في معروضاته والإشراف على تنظيمه وسيحضر افتتاحه معالي الأستاذ علي أيوب وزير المعارف ، وقد ندب بعض موظفي الوزارة للسفر إلى باريس للاشتراك في الإجراءات التمهيدية لافتتاح المعرض

انتشار التعليم على العموم ، فهم لا يريدون تعليماً يستنير به المتعلمون وإنما يريدون تعليماً «يجلزه» وحســـب . وزمام الإنجليزية في يدهم يطيعون من يعلمونه بها كما يشاؤون ، بخلاف الأمر في تعليم العربية غير المأمون.

وتلك «التعلات» ليست جديدة علينا ، فقد سمعناهم من عهد قريب يقولون — لمعارضة التوسع في إنشاء المدارس المصرية بعدن السودان — إنه ليس من مصلحة البلاد تعدد الثقافات فيها وقد فندت هذا القول في حينه . ثم خطب بعد ذلك معالي الأستاذ علي أيوب وزير المعارف في حفلة نهاية العام الدراسي الماضي بكلية فيكتوريا الإنجليزية فقال إنه يرى نجاح هذه الكلية في مصر دليلا على فائدة تعدد الثقافات !

وكانت هذه رمية مسددة من معاليه كان أحرى بالإنجليز في مصر أن يمشوا بها إلى زملائهم في السودان ، ولكنهم لم يفعلوا لأنهم يوقنــون أن ما يقوله الزملاء هناك إنما هو «تعلات».

وبعــد ، فإني أبعث إلى السيد عبد الرحمن علي طه بتحية من شمال الوادي ، لتشدده في أن تدرس اللغة العربية دراســة أساسية في جنوب السودان ، تشدداً بلغ حد التهديد بالاستقالة ، ويبدو من آخر الأخبار أنه مصر على رأيه وأنه أدنى إلى النجاح فيه ، وهو موقف مشرف ينظر إليه التاريخ نظرة ملؤها الاحترام والاعتبار .

مركب إذاعي :

إذا رأيت في الصحف أو سمعت في البرلمان نقداً للإذاعة ينصب على تقصيرها في مسألة من المسائل التي يجب أن تهتم بها ، فلا بد أن ترى على أثر ذلك في مجلة الإذاعة المصرية — إن كنت تراها — أن إذاعتنا مهتمة بهذه المسألة أكبر الاهتمام ولم تتوان من أن تتخذ فيها كيت وكيت ، وذلك بأسلوب يجتهد فيه كاتبه أن يمشي موضع المؤاخذة بالتعميم والتهويش دون أن يحرج نفســه بالتفصيل والتبيين ؛ وبذلك تحاول الإذاعة أن تعوض النقص ، ولكنها تركبه ..

وآخر مثل لذلك ما أخذه الكتاب على الإذاعة من تقصيرها في تسجيل روايات نجيب الريحاني المسرحية ، وكانت الإذاعة تذيعها من مسرحه ، فكان أن توفي ولم يسجل له عمل مسرحي .

ثم طلعت مجلة الإذاعة في الأسبوع الماضي (عدد ٧٤٥) تقول إننا سنقدم قريباً رواية للريحاني ، وأعقبت ذلك بأن الإذاعة المصرية تحتفظ بتسجيلات وافية لأصوات العظماء والأدباء والفنانين ، وأنها لم تقصر في هذا المضمار .

وتوهم المجلة بذلك أنهـا سجلت شيئاً للريحاني ، دون أن تحرج نفسها بذكر اسم الرواية ، على طريقتها التمويهية المتقدمة .

وأخيراً ، يوم الخميس الماضي تمخض المذياع فنقل من سينما استديو مصر فلم (سي عمر) لنجيب الريحاني !

وكفى الله الإذاعة عناء التسجيلات ! !

عباس خضر

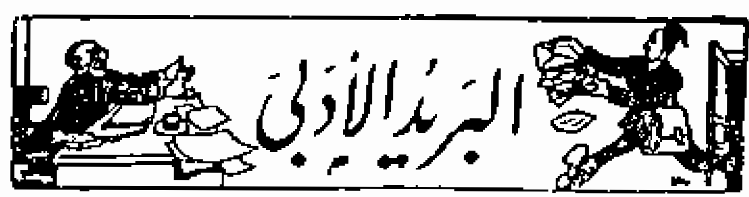
▫ أعلنت سفارة الباكستان في القاهرة عن حاجة الإذاعة الباكستانية إلى مدير لقسم العربي بها ومساعدين له ، وذكرت الشروط التي يجب توافرها — من حيث الكفاية والمؤهلات — فيمن يتقدم لهذه الوظائف . والشروط في جملتها لا تتحقق في واحــد من كبار المشرفين على إدارة الإذاعة المصرية وخاصة المراقب العام .

▫ كتب الأســتاذ سلامة موسى في «اللقاء» يوم الثلاثاء الماضي مقالا حمل فيه على من يسمي دولة إسرائيل (مزعومة) «لأنه يرى في هذه الكلمة عناداً على الاستهانة بهذه الدولة الجديدة التي تحاولم أن توجد زعماً ... وحكومة علمية وثقافة ... » كما قال : وهذه عينة أخرى من الأفكار الحرة «المزعومة» التي يدافعون عنها في رابطة الأدباء .

▫ ظهر العدد الأخير من مجلة الإذاعة المصرية ، وعلى صفحة غلافه الأولى صورة مسجد ، وعلى صفحة الغلاف الثانية صورة امرأة عارية (بالمايوه) — خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً .

▫ أعلنت جريدة الزمان بجريدة الأهرام عن مسابقة شعرية تجريها في (ركن الأدب) بها بين الشعراء الناشئين . ولعل الجريدة ترمي بالإعلان في زميلة أخرى وعدم الاكتفاء بالنشر فيها إلى أن تنبه من لا يقرؤها من الشعراء الناشئين إلى المسابقة . وقد رأيت أن أتمم لها هذا الغرض بهذه النبذة .

▫ أنشأت الجالية اللبنانية بمدينة مكسيكو مدرسة عربية ، وقد بلغ عــدد تلاميذها ٢٥٠ وكلهم من أبناء المهاجرين العرب الذين يرغبون في درس لغة وطنهم الأول .



بيان وتنبيه !

١ – قرأت للمرة الأولى كتاب التصوف وفريد الدين العطار للدكتور عبد الوهاب عزام بك مع نقده في مجلة الكتاب الغراء ، وقد طالب الناقد الكشف عن فقرة فشرحتها ، ولم يتيسر إيضاح الفقرة الثانية .

ثم قرأته للمرة الثانية ولا زالت تلك الكلمة أمام ناظري ، حتى تبين لي وجه الصواب فيها . وتلك الكلمة هي قول الجنيد كما وردت في الكتاب المذكور « ليس الاعتبار بالخرقة ، إنما الاعتبار بالُحرقة » .

وقد قال الناقد عنها في مجلة الكتاب «وهنا يدعو أن نسأل الدكتور عن تساهله أحياناً في إيراد القول الواحد على وجهين قد لا يتآزرهما للمعنى، ولكن تآزر بهما إرادة التحقيق، فقد روى في ص٢٩ عن الجنيد أنه قال : ليس الاعتبار بالخرقة ، إنما الاعتبار بالُحرقة » وفي ص ٣١ ذكر أن الجنيد قال : إنما الاعتبار بالحرقة وليس الاعتبار بالخرقة «ومؤدى الروايتين ومفهومهما يكاد يكون واحداً لولا الفرق بين إيراد النفي أولا والحصر بإنما ثانياً وما يتبع ذلك من فرق دقيق في المعنى من حيث علم المعاني ... » .

وأقول : إن الصوفية عمهم العمل ظاهراً وباطناً ، فظاهراً الاحتراف وعدم الكسل ، وباطناً تنقية النفس من أدرانها حتى تكون العبادة على صفاء . وقد كان الأكابر من رجال الطريق عند ما يأخذون على أحد العهد يقرونه على حرفته ويطلبون منه عدم تركها والإحسان فيها . ولذا كان الخواص يقول : إن الذي يأكل من كسبه ولو مكروهاً كالحجام أحسن من المتعبد الذي يأكل بدينه ويطعمه الناس لصلاحه . وكان رضي الله عنه لا يجيب فقيراً إلى طعامه إلا إذا علم أن له كسباً شرعياً من تجارة أو زراعة أو صنعة . وقد سأل شخص من الأمراء أن يعمل له مولداً فأبى الشيخ وقال : والله إن كسبي من هذا الخوص لا يسمح لي الأكل منه ، فكيف آكل من كسب الأمراء أو أدعو الناس إلى الأكل منه !

مما ذكر يتضح أن التصوف الحق هو العمل وهو المراد من قول الجنيد رضي الله عنه . وصحة قوله هو : ليس الاعتبار بالخرقة ، أي بلبس ثياب المتصوفة ، إنما الاعتبار بالحِرفة أي الصنعة . بمعنى أن الدين الصحيح والعبادة الحقة ليس لبس الإنسان لباس التقشف والمعيشة على حساب الغير وترك الكسب ، وإنما هو الاحتراف ومنفعة العباد ، فلا خير في شخص لا فائدة في حياته . وهذا نبي الله داود عليه السلام مع صفته « كان يأكل من عمل يده » .

فالعمل في نظر المتصوفة هو الحياة ، ولا خير في حياة بلا عمل .

٢ – ظللت أرتع في رياض كتاب « عبقرية محمـــد » للأستاذ عباس محمود العقاد وأستمتع بالنظر إليها وبأريجها ، وبما فيها من جمال وجلال ، ولكني وجدت نبتة صغيرة – ليس لها مكان – يسهل اقتلاعها إذ لا يصح أن يشملها هذا الروض العطر .

وأنسم فأقول وجدت حديثاً في ص٢٣٩ وهو « كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف ... » .

وهذا الحديث القدسي ليس مذكوراً في الكتب المعتمدة في الحديث ، وقد قال عنه ابن تيمية : ليس من كلام النبي عليه السلام ولا يعرف له سند صحيح . «وتبعه الزركشي وابن حجر والسيوطي وغيرهم ، ومن المتأخرين من أفتى ببطلانه . ولو ورد على لسان بعض المتصوفة فليس لبعضهم باع في ذلك وقد قال أحد أكابرهم وهو الغزالي « أنا مزجى البضاعة في الحديث » . ولأن مدار صحة الحديث على السند ، وهذا الحديث الذي معنا لا سند له .

ولو خلا منه كتاب الأستاذ العقاد لما أثر فيه ولما ذهب من جماله شيء بل يزيده جمالاً فوق جماله .

(شطانوف) محمد منصور خضر

حب عذري :

يكاد يجتمع الكاتبون في عصرنا على أن الحب الطاهر لم

يجد له وجود إلا في بطون الكتب ، وخيالات الشعراء ، وأدمغة المحررين ، ويرون أن الحب إن كان بالأمس سمواً بالنفس عن الدنيات ، وانفاعاً بالروح عن أوضار التراب ، فإنه اليوم شهوة جسد إلى جسد ، ورغبة جنس في جنس ، قالوا ، ولا يدعي الهوى الطاهر إلا أحد رجلين إما مجنون أو مغالط .

وقد حدثني صاحبي — وما عهدته يكذب — بقصة أسوقها لقراء الرسالة ، أنا أعلم أن الحلم الفتير منهم سيزم شفتيه ، ويجحظ بعينيه ، ويرسل خياله في الأفق ثم يقول : أين ، ومتى ؟ وأن القليل ، أو الأقل من القليل ، سيتفاءل ، ويقول : يحتمل ، ولكنني على كل حال واثق من صدق صاحبي ، مؤمن بما قال ، وقد أوجز قصة صاحبته فقال : هي فتاة لم تبلغ العشرين من عمرها ، وهذه السن هي سن الطيش والنزق عند الفتيان والفتيات ، ولكن هذه الآنسة أثبتت بسلوكها أن الفتاة المتدينة المحافظة ، المترفعة بنفسها ، الخاضعة لكبريائها ، تستطيع أن تكون قوية الإرادة ، صادقة العزيمة ، فلا تندفع وراء عواطفها ، ولا يجرفها التيار ، رأته فأحبته ، أحبته حباً شديداً ملك عليها نفسها ، وسيطر على مشاعرها ، وكما يقول الرافعي رحمه الله : « أراه حباً فاتنا كبدي » كان شاباً مديد القامة ، أبيض الوجه ، مفتول العضل ، وكان فوق ذلك (فناناً) ، أحبته ، وتطلعت نفسها إليه ، وأوشكت أن تنزل إلى الشارع لتتحدث إليه ، وتنعم بقربه ، ولكنها — بعد جهاد نفسي عنيف — خضعت لكبريائها ، ونزلت عند تقاليد أسرتها ، فآلت على نفسها أن تتجلد ، وتتحمل ، وأن تترك حبه يفعل في نفسها ما يفعل .

قال صاحبي : وأتيح لي أن أطلع على سرها وأن أتحدث إليها فيه ، فسألتها مرة : كيف عرفت هذا الفتى ؟ قالت : رأيته يروح ويغدو إلى مدرسته في هدوء الفنان ، قلت : ما اسمه ؟ قالت : ذلك اسم مقدس ، لا أسمح لنفسي أن تنطق به ، ولا أبيح لغيري أن ينطق به أمامي ، قلت : هل تريدينه زوجاً لك ؟ قالت : لا . إنه جميل ، إنه أجمل مني ، وأنا لا أصلح له . إن كل ما أرجوه أن يبلغ قمة الشهرة في فنه ، وأن يتزوج بفتاة جميلة تسعده ، ولا أريد أن يضحي بعواطفه في سبيلي . قلت : كأنه يحب أخرى ، قالت : نعم ، قلت : هذا شاب صغير النفس ، قالت تريد سيدي ، أرجو أن تتأدب في الحديث عنه . إنني أحبه حباً خالصاً ، لا أريد من ورائه ما تريده الفتيات أمثالي ، وسأظل وفية له ، ولو أحب مائة فتاة أخرى . ويا حبذا لو استطعت أن أقدم إليه ما يساعده على بلوغ آماله .

تلك هي قصة هذه الفتاة المثالية ، فما رأي قراء الرسالة ؟

علي العماري

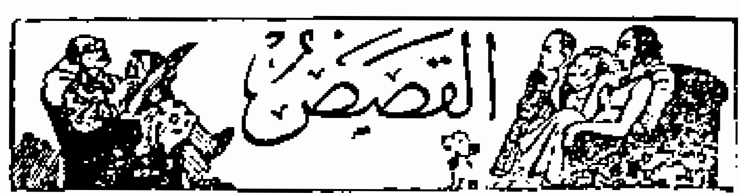
الجمع بين الأختين :

ورد في القصة التي نشرتها السيدة بنت الشاطئ في مجلة الهلال لشهر حزيران (يونيه) إن الزوج قد جمع بين أختين في زواج واحد ، حيث قالت الكاتبة : (حيث شاع في الحي بعد حين أنه تزوج من أختها وهي أرملة ...) وجاء أيضاً في الصفحة ذاتها (... فسكنت حيث هي ، تمنح عيناً على طفلتها ، وترسل الأخرى وراء الزوج والضرة الأخت وبنتها) .

ولما كان أدب القصة يقضي أن تكون القصة منتزعة من صميم المجتمع مصورة تقاليده ، واعية شعائره ، ممثلة لشتى النزعات والخلجات التي تدور في نفوس أشخاصه لكي يسهل أداء الرسالة وتحقيق الغاية التي يهدف من ورائها القاص . ولست أدري كيف غرب عن بال الكاتبة الفاضلة أن الجمع بين الأختين محرم في الشريعة الإسلامية السمحة ، إذ أن القاعدة فيها أنه يحرم الجمع بين امرأتين لو فرض أحدهما ذكراً حرمت عليه الأخرى ؛ كالجمع بين الأختين وبين امرأة وعمتها أو خالتها أو بنت أخيها أو بنت أختها . لأنه لو كانت أحداهما رجلاً ، كانت الأخرى أخته أو عمته أو خالته أو بنت أخيه أو بنت أخته وذلك لقوله تعالى في كتابه الكريم : (وأن تجمعوا بين الأختين) . ولقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم : « لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا على ابنة أخيها ولا على ابنة أختها ، فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم » وبهذه المناسبة أقول إن الجعفرية تذهب إلى أنه يجوز للرجل أن يتزوج على امرأته بنت أخيها أو بنت أختها رضا من امرأته . وبعمتها وخالتها مطلقاً قاصرين الجمع على ما ورد في النص .

هذا وللكاتبة الفاضلة ولصاحب (الرسالة) الغراء جزيل الشكر

(بغداد — كرخ) محمد السبطي الحامي



قصص من لبنان :

رفيق عـــلام ...

[مهداة إلى الصديق الأستاذ أنور المعداوي]

للأستاذ سهيل إدريس

كانت تشدني إلى رفيق علام صداقة مخلصة وثقت أواصرها خمسة أعوام تلازمنا فيها تلازم الظل وصاحبه . فلم يكن عجباً أن أدرك من شأن رفيق ، ويدرك هو من شأني ، مثل الذي يتاح للأخ من أخيه . وقد كانت طبيعة عملنا التجاري الواحد ، وتجاورنا في السوق ييسران لنا اللقاء ، كلما وجدنا من وقتنا ساعة . وكنا إلى ذلك نتواعد على قضاء سهراتنا في الملاهي ، فيجد كلانا أن صاحبه أقرب إليه من نفسه .

والحق أن صديقي رفيق كان شاباً وسيماً جذاب الملامح ، ممشوق القامة ، تحسبه إذا ما رأيته من أولئك الذين يختارون اختياراً لتمثيل الأفلام السينمائية ... وكانت الملابس – إذا ما ارتداها – تكتسب أناقة ليست هي من طبعها ، فتجتذب إليه أنظار النساء قبل الرجال .

وكان يسعدني أن يجد رفيق فيّ وأجد فيه مستودعاً ينفض كلانا عنده ذات نفسه ، فكنا نتعاون على شؤوننا ونتبادل المشورة في الشجون ، حتى لم يكن أحدنا يحبس عن صاحبه خبيئة ، وقد أتيح لي بفضل ذلك أن أقف من حياة صديقي على نفسية شاب تعد نموذجاً بشرياً في حياة الناس .

* * *

لقد تابعت عن كثب قصة حبه الأول ، ذلك الحب الذي كانت بطلته فتاة أنسى أني لم أر أجمل منها في النساء اللواتي أعرف وأرى ، وقد عاش رفيق هـذا الحب بكل ما في أردانه من طاقة الحيوية وبقصارى ما تنطوي عليه جوانحه من رصيد الشباب وحيا الفتوة ؛ ثم تحطمت كأس الحب في يده ذات يوم ، لشدة ما عصرتها أصابعه ، فخرج من ميدان المعركة مثخناً بجراحات دامية ، لا يكاد يملك وعيه من فرط ما كانت تورث في نفسه من آلام . ولما اندملت الجراحات حسب أنه شفي ، ورأى بوسعه أن يستأنف طريقه أثبت قدماً ، وآمن غاية .

ولقد سلك هـذه الطريق حقاً ، ولكني رأيته يتهاوى على الجانبين ، فأدركت أن آثار الصدمة لا تزال تفقده توازنه .

كنت أعرف الأثر الذي تركه حب « مها » في قلبه وكيانه ونفسه . كنت أعرف عمق هذا الأثر ؛ فلم يكن بدعاً أن يبدو أعمق منه جرح خيانتها إياه ، في أعنف فترة من فترات حبه . وقد بلغ من شـدة هذه الصدمة أن رفيق لم يحدثني عن الخيانة إلا مرة واحدة بكلمات قليلة مقتضبة ، كأنما كان يرغب في أن يوفر على نفسه العذاب الشديد الذي تبعثه ذكراها ...

ومنذ ذلك اليوم ، تبدى لي صديقي كالشبح التائه الحائر ، يسير دون أن يعين مقصداً ومن غير أن يستشرف محجة . كان كهؤلاء الذين كتب عليهم أن يقضوا حياتهم هائمين سادرين ، في طريق ضالة ، يتناولون الأحداث كما تأتي ، ولا يفكرون بغير اللحظة التي يحيون .

على أن شيئاً من ذلك لم يكن ليبدو في ظاهر الحياة التي يسوقها صديقي ... بل لقد كانت آثار السعادة وآيات الرضى والمرح بادية على وجهه ، حتى تحسبه قد طرح عنه هموم الدنيا وتدرع باللامبالاة واتخذ من الحياة كلها أداة لهو ومتعة ... أفيكون هذا رد فعل متيناً للصدمة النفسية التي حطمت أعصابه وأوهنت قواه ؟

ولعل أعجب ما في أمره أن سعادته تلك كانت تتجلى أكثر ما تتجلى إزاء مبعث شقائه الغامض ومصدر ألمه المكنون .. إزاء المرأة نفسها ... سعادة ترتسم بسمة على ثغره لا تغيض ، ومرحاً في عطفه لا ينفد .

وكنت كلما لقيته أستمع إليه يحدثني عن مغامراته فيصدقني الحديث ، فلا أعجب من أن تقبل عليه الفتيات كلفات بحبه

شديدات الإعجاب بشبابه ، وكان هذا يتيح له أن يحظى من المرأة بما تمتنع عن بذله غالب الأحيان .

وقد كنت موقناً أن صديقي يطلب في المرأة أول ما يطلب الجمال الفاره ، والفتنة الطاغية ، وكان سرعان ما ينصرف عن الفتاة التي لم يجد عليها القدر بحظ بالغ من الجاذبية والحسن . وقد عرفني ذات مساء بفتاة في متجره ظلت صورتها مطبوعة في عيني طوال تلك الليلة ، ولم أستطع أن أخنق شعور الحسد الذي داخلني منه ! كانت « سميرة » — وهذا هو اسمها — ذات عينين تنفثان السحر ، وملامح تعجز يد الفنان النابغ من أن تخط مثلها في الدقة والانسجام ، وقامة نحتت في قالب صناع .

وأقبلت على رفيقي في اليوم التالي أسائله :

— إنها لجديرة بك حقاً ... فما تنوي أن تفعل ؟

فانتفض يقول : — أأزوجها ؟ أهذا ما تعنيه ؟

فأومأت برأسي إيجاباً ، فإذا هو يصمت لحظات ، ويرنو إلى بعيد فلا أرى في عينيه غير الشرود . إنه لم يفكر في هذا من قبل ، وها هو ذا غير مطمئن ولا مستقر ، كأنما كانت تخيفه فكرة الزواج .

وكان هذا شأنه أيضاً يوم سألته لماذا لا يخطب ابنة عمه التي كانت تهوى إليه بكل ما في كيانها من حب ، وكانت تنعم بحظ وافر من الجمال والأناقة والثقافة . . وقد حدثني هو نفسه عنها ، ولم يخف علي أنه معجب بها ، وأنه سعيد في أن يشعر نحوها بالحب ، ولكني إذ جابهته بفكرة الزواج ، ألفيته يعود إلى حيرته وتردده ، كأنما لم يكن له الخيار في أمره ...

على أن صديقي أخفى عني أمراً واحداً ، هو أنه كان على علاقة بفتاة ثالثة لم يحدثني عنها لحظة ، وقد رأيته في صحبتها غير مرة في مطعم أو ملهى ... وفاجأته ذات مساء بذكرها فبدا الارتباك ، ثم أخذ يضحك قائلا :

— لم أحدثك عنها خجلا منك ... إنني أبالغ حقاً في علاقاتي مع النساء !

— فبادلته ضحكته ، ولكني لم أجرؤ على مصارحته بأني بت أخشى عليه كل الخشية ، وإني أود لو يقر في حياته على قرار ...

هكذا كان رفيق . تحسبه إذا رأيته سعيداً مرحاً راضياً ، فإذا أحببت أن تكشف عن دخيلته ، ألفيت فكره وحسه غارقين في أمواج متلاطمة من الحيرة والشك والاضطراب .

لقد كنت أقرأ في عينيه أنه شقي في أعماقه ، وأنه لا يدري هو نفسه ما الذي يريد . وكان هذا الاضطراب مسطوراً في نظراته الشاردة التي لا تستقر على معنى ... بل كنت ألاحظ أنه كان يحاول جاهداً أن يتفادى النظر في عيني والتحديق بهما ، كأنما كان يخشى أن أشرف من عينيه على عالمه النفسي المتهافت ...

ولم أجد آخر الأمر مناصاً من أن أجابهه برأيي الصريح ، فانتهزت فرصة أدركت أنه كان متهيئاً فيها للبوح والبث ، وسألته بلهجة لا تخلو من تعنيف :

— إلام تنتظر يا رفيق ؟ ألست راغباً في أن تستقر بحياتك على قاعدة ؟ إنك الآن في فجر شبابك ، وإن بيدك المال وافراً ، فلماذا لا تتزوج إحدى فتياتك الثلاث ، وكلهن رائعات الحسن ، فتحظى بالطمأنينة التي تفتقر إليها ؟

وحاول أن يضحك وأن يعمد إلى المزاح ، ولكنه سرعان ما انقبضت أسارير وجهه ونظر إلي بإجهاد ، ثم قال بعصبية :

— لا ... لست أطمع في واحدة منهن ... إنهن لسن جميلات ... وأنا لا أحب إحداهن ولست أرغب في الزواج .

وحين حاولت أن أظهر له خطأ نظرته إلى جمالهن قاطعني يقول : لا ... ليست واحدة منهن في مثل جمال « مها » ، ويخيل إلي أني لن ألتقي بعد الآن فتاة جميلة مثلها ، وإني سأبقى أبد الدهر أعزب .

كان هذا كل ما نطق به تلك الليلة ، ثم انصرف عني ، على شدة رغبتي في أن أستمع إليه وألتمس المزيد مما يشجيه ... والحق أن هذه العبارات اليسيرة كانت غامضة لم تحسر لي عن طوايا نفسه . وكل ما خلته ساعتذاك أن امتناعه عن التفكير بالزواج عائد إلى هذا الخوف الغامض الذي تملك به نفسه من الخيانة ... ومن المرأة ... ومن الجمال ... ومع ذلك فهو لا يلتمس غير المرأة وغير الجمال ! إنه دون ريب لا يعي هذا الخوف ، ولو كان يعيه لما غرق في هذه الحيرة التي تجعله تائهاً في خضم الحياة ...

* * *

ثم وقع صديقي رفيق ذات يوم فجأة في مرض أقعده زهاء ثلاثة أسابيع في داره . وقد عدته في هذه المدة غير مرة ،

وكان يشكو « الدوسنطريا » ، ولكني أيقنت أن مرضاً نفسياً هو الذي أودى بصحته . وإنه كان يشكو عقدة توهن قواه .

وفي تلك الفترة ، عادت جراحات الذكرى تدمى روحه وضميره وتوهن أعصابه ، ثم صارحني بعزمه على أن يهجر البلاد ويسافر إلى أوربا . فإذا وجد راحة لنفسه استقر فيها ، وإلا عاد بعد أن يكون قد التمس من العزاء والتفريج قدراً كافياً للانطلاق في طريق جديدة من طرق الحياة .

ولم أجد أنا مبرراً لأن أقنعه بالبقاء ، بل لقد شعرت بأن علي أن أحثه على مغادرة الجو الذي فجع فيه بعاطفته البكر ، فلعله إذ يبتعد عنه يسلو ويتعزى ... ولعله يجد هناك — في أوربا — المرأة الجميلة الرائعة التي تمحو من قلبه ونفسه صورة الفتاة الأولى التي يخيل إليه أنه لن يلتقي أجمل منها ...

وكأن هذا العزم أزال طرفاً من الحيرة التي كانت تقلق حياة رفيق ، فإذا البشر يعاوده ، وإذا سيماء المرح تشيع على محياه ، وإذا هو يشفى من نكسته في وقت يسير ، ويأخذ يعد عدته للسفر إلى بلاد الغرب .

ولكنه ما لبث أن فاجأني يوماً بأنه قد عدل عن السفر ، وأنه لا ينوي أن يغادر بيروت . وحين سألته تعليل هذا الانقلاب ، دعاني إلى تناول الغداء معه ذلك اليوم ، ووعدني أن يزيل فضولي إذ أوافيه إلى داره عند الظهيرة . وجعلت أترقب حلول موعد اللقاء ، وبي عجب لا ينقضي ، ورحت أتساءل : لعل رفيق لقي فتاة حظي جمالها من إعجابه بما لم يحظه جمال سابقاتها الثلاث ! أو لعل « مها » نفسها عادت إليه تستغفره ، فصفح عنها ، واستسلم لجمالها الطاغي ؟ ...

وظللت في حيرة وتساؤل شديدين حتى بلغت داره عند الظهر فاستقبلني بترحاب لم أعهده منه ، وما عتم أن دلف بي إلى غرفة الطعام ...

وسرعان ما لاحظت أن المائدة كانت قد أعدت لثلاثة أشخاص ، وابتسم رفيق إذ أدرك أني لاحظت ذلك ... ولكنه امتنع عن أن ينبس بحرف .

وإن هي إلا برهة وجيزة حتى تطلع صحفنا وقع خطى متجه إلينا ، وقبل أن يتاح لي أن ألتفت إلى مصدر الصوت ، كان رفيق قد نهض مرحباً ...

وحين عدت إلى الجلوس ، بعد أن جلست هي ... كنت ملتاث الحس ، مختلط الذهن ، أكاد لا أميز معاني الأشياء .

لقد كانت هي ... علياء ، خادمة رفيق ...

يا إلهي ... إنها هذه الفتاة التي لم تكن تمتاز بأي حظ من الجمال ... هذه الفتاة التي كانت تخدمه في إبان مرضه ، فلم أكن أوليها نظرة من نظراتي . إنها خادمته ... خادمته ...

وانتزعني هو من وهدة التفكير المضني ، حين سمعته يقول لي :

— إنها علياء ... وقد عرفتها ولا ريب . لقد خطبتها أمس .

وكنت مطرقاً ببصري إلى المائدة لا أرفعه إليه ، حتى رأيت يده تمتد إلى منبسطة تبغي المصافحة ، وسمعته يسألني :

— ما بالك ... ألا تهنئني يا صلاح ؟

فلم أستطع إلا أن أنظر إليه ...

وسرعان ما أحسست بكفي تمتد إلى كفه ، فتصافحها ، ثم تشد عليها بحرارة ، بينما كنت أتطلع في عينيه .

لأول مرة منذ عرفت رفيق ، قرأت في عينيه الطمأنينة والاستقرار .

(بيروت) سهيل إدريس

مطبعة الرسالة